أفعى في
«ألما داغ»

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: أفعى في «ألما داغ»
التأليف: سعيد فايق عباسي يانيق
ترجمة: عبد الرحمن دردير
موضوع الكتاب: أدب مترجم
عدد الصفحات: ١٦٠ صفحة
عدد الملازم: ١٠ ملازم
مقاس الكتاب: ١٤ x ٢٠
عدد الطبعات: الطبعة الأولى ٢٠٢٤
رقم الإيداع: ٣٢٩١٤/ ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٩٦٧٩-٠٩-٩

القاهرة - جمهورية مصر العربية
٠١٠١٢٣٥٥٧١٤
٠١١٥٢٨٠٦٥٣٣
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

دار البشير

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم. حسب قوانين الملكية الفكرية. ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

محفوظة جميع الحقوق

مجموعة
قصصية

أفعى في «ألما داغ»

تأليف

سعيد فايق عباسي يانيق

ترجمة

عبد الرحمن دردير

دار البشير

التعريف بالمؤلف

وُلد "سعيد فايق عباسي يانيق" في ١٨ من نوفمبر عام ١٩٠٦ م في حي "آدابازاري"، قضى طفولته هناك أيضًا، تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة "رهبري ترقي"، وتلقى جزءًا من تعليمه الثانوي في مدرسة بنين في إسطنبول وأتمه في مدرسة بـ"بورصة" في الفترة ما بين عامي (١٩٢٥-١٩٢٨). بدأ تعليمه الجامعي عام (١٩٢٨) في قسم اللغويات بكلية الآداب بجامعة "إسطنبول"، وذهب بعدها بعامين إلى "سويسرا" عن طريق البندقية؛ ليلتحق بقسم الاقتصاد بناءً على رغبة والده، فذهب إلى "غرونوبل" في فرنسا بعد أن مكث مدة قصيرة في "لوزان"، فقضى ثلاث سنوات في هذه المدينة الفرنسية التي أحبها؛ فأثرت في فنه وشخصيته جم الأثر. عمل في تدريس اللغة التركية في مدرسة "هاليجي أوغلو" للأيتام الأرمن بعدما عاد من فرنسا. زجّ به أبوه الذي أراد له منذ نعومة أظفاره أن يصبح تاجرًا في التجارة فلم ينجح. بحث عن سبلٍ لكسب قوت يومه بقلمه، وبوفاة والده عام ١٩٣٩عمل مراسلًا في صحيفة (الخبر) عام ١٩٤٢ م؛ فنشر سعيد فايق عباسي -الذي بدأ يكتب في الثانوية- أول شعرٍ له في مجلة (المكتب)

عام ١٩٢٩ م، فالكاتب الذي وهب نفسه للقصص أوجد مفهوم القصة الحديثة للأدب التركي متناولًا موضوعات مثل البحر، والعمال، والأطفال، والفقراء، والعاطلين، والصيادين بلغة بسيطة مُقفَّاة. اختارته جمعية "مارك توين" العالمية بالولايات المتحدة الأمريكية -التي اختارت من قبل أتاتورك عضوًا شرفيًّا لما قدمه من إسهامات في الأدب المعاصر عام ١٩٥٣م وتوفي في ١١ من شهر مايو عام ١٩٥٤ م في إسطنبول.

أعماله:

القصص: براد الشاي (دار نشر رمزي عام ١٩٣٦)، الصهريج (دار نشر جيغير عام ١٩٣٩)، المطرقة (دار نشر جيغير عام ١٩٤٠)، إنسان عديم الجدوى (دار نشر فارليك عام ١٩٤٨)، مقهى القرية (دار نشر فارليك عام ١٩٥٠)، السحابة في السماء (دار نشر فارليك عام ١٩٥١)، الشركة (دار نشر فارليك عام ١٩٥١)، هافوز باشي (دار نشر فارليك عام ١٩٥٢)، الطيور الأخيرة (دار نشر فارليك عام ١٩٥٢)، ثمة أفعى في ألما داغ (دار نشر فارليك عام ١٩٥٤)، قليل السكر (دار نشر فارليك عام ١٩٥٤ نشرت بعد وفاته).

الروايات: دوامة الحياة (الطبعة الثانية صدرت باسم بعض الناس)، (دار نشر يوكوش عام ١٩٤٤)، البحث عن غائب (دار نشر فارليك عام ١٩٥٣)

الشعر: الآن وقت الحب (دار نشر ينيليك عام ١٩٥٣).

قصص تحقيقات صحفية: طفل النفق (دار نشر فارليك عام ١٩٥٥)، باب المحكمة (دار نشر فارليك عام ١٩٥٦)

أعمال أخرى: موت الصياد، يحيا الأدب (دار نشر بيلجي عام ١٩٧٧)، فندق الهواء الطلق (دار نشر بيلجي عام ١٩٨٠)، قطار عجيب (دار نشر بيلجي عام ١٩٨١)، رسالة إلى الحبيب (دار نشر بيلجي عام ١٩٨٧).

الترجمات: الحرص على الحياة لجورج سيمنون.

***

أُسست جمعية دار الشفقة التي بها تمثيل قانوني لكاتبنا العزيز سعيد فايق عباسي فايق بأمر من السلطان بتاريخ ٣٠ مارس عام ١٨٦٣ لتوفير التعليم دون مقابل للطلاب والطالبات اليتامى وممن ليس لديهم كفاء مالي. وهذه المؤسسة التي بدأت في التفعيل منذ ذلك الحين إلى الآن وتجددت وتحولت إلى تعليم جامعي عام ١٩٥٥ وتعليم مختلط وانتقلت إلى المدينة الجامعية بمدينة مسلك عام ١٩٩٤. تُعد دار الشفقة التي هي أول مدرسة خاصة فتحتها جمعية خيرية في تركيا (أول مدرسة للشعب) من خلال توفيرها الملاذ والتعليم المشترك دون مقابل، بمنح

الطلاب والطالبات ممن مات آبائهم ويعانون الفقر، ولكنهم موهوبون الإمكانات التعليمية، بما في ذلك الملبس، والملجأ، والمأكل، والكتب، والصحة. وهذه المؤسسة التي مازالت توفر التعليم باللغة الإنجليزية لتسعمائة طالب تتولى نفقاتها بنفسها دون مساعدة الدولة وتتمثل إمكانات جمعية دار الشفقة في بعض تبرعات أفراد الشعب محبي الخير وتقييم هذه التبرعات.

سعيد فايق عباسي فايق في حياته - زار مدرسة دار الشفقة الموجودة في الفاتح إسطنبول حينها- فاهتم بالأطفال التي كانت تدرس هناك وقدرهم، وبعد وفاته أوصى بالتبرع بكل ممتلكاته إلى دار الشفقة، عملت أمه مقبولة عباسي فايق بوصيته وتركت حقوق النشر للجمعية، لكنها اشترطت الإبقاء على قصره الموجود في بورجازادا متحفًا، إعطاء هبة القصة كل عام لاسم ابنها. حافظت أمه على جمعية دار الشفقة بناءً على وصيته بحرص، والتي انتقلت إليها عام ١٩٦٤، وكذلك قصره متحفًا وإلى يومنا هذا تنظم واحدة من أهم مسابقات الأدبية في تركيا باسم (هبة قصة سعيد فايق).

ملاحظات النشر: كتاب "أفعى في ألما داغ" عندما جُهز للطباعة من جديد اُتخذت من الطبعة التي نشرها دار نشر فارليك عام ١٩٥٤ في حياة سعيد فايق عباسي يانيق. وعُدّلت

على أساس طرق الكتابة الحديثة التي تتوافق مع مفهوم لغة هذه الفترة، وتمت إضافة أو حذف علامات الترقيم عند الضرورة مع الوضع في الاعتبار تيسير القراءة.

تم ذكر دار النشر الأولى للقصص وتاريخ النشر، ويتم ذكر شروحات متعلقة بنهاية كل قصة. والقصص التي أوردها الكاتب في الكتاب مباشرة دون نشرها في أي جريدة تم توضيح في نهاياتها ملاحظات الناشر.

***

يا لها من قصة!

أخذ المطر يهطل عندما خرجت من السينما. ماذا سأفعل؟ سببتُ، وسببت الأب والأم، أردّتُ المشي.. نادى أحد السائقين: "عاتيقالي، عاتيقالي!" أأذهبُ إلى عاتيقالي في هذا الوقت من المساء؟ سأذهب. ركبتُ بجوار السائق. وذهبنا في طريقنا مباشرة. وصلنا إلى "عاتيقالي" في موجة ألوانٍ وقد رأينا بخار السيارة وكثيرًا من الأضواء الحمراء والصفراء والخضراء من الزجاج المُبلّل. إن سرت مئة خطوة من موقف "بومونتي" في "شيشلي" أصل بيتي؛ فأتدثر في فراشي ذي اللحافين وأفكر في صديقي "بانكو"، ليس لدي أحدٌ غيره الآن، ترقد أمي مريضة في مضجعها بأحد جزر "إسطنبول" وكلبي الأسود ينتظرها وينتظرني في بيته، ويقطن بانكو في شارع يُدعى "جيلك" يحلم بمباريات كرة القدم، أو أنه يلعب أوراق اللعب في حلمه، بينما أنا في "عاتيقالي" في منتصف ليلة ممطرة، على حد زعمي فأنا في شارع مشجر. أسير، المطر يمطر ويمطر. نعم، المطر، والوحدة، و"عتيقالي" محقون كلما ابتعدتُ اشتقت لأمي، وبانكو، وكلبي أراب، فثلاثتهم نائمون، أمي تشخر،

فاستيقظ أراب منصتًا للشارع، وبانكو لا يحل، قاطعته منذ فترة وجيزة، أعرج على أزقة لا أعرفها في عاتيقالي مفكرًا في شخصين وحيوان، تدوي صافرات الحارس، يَفِرُّ أحدهم من بيته كالمجنون، فينقض عليّ: "يا اخي قتلت صديقي، خبأني"، فأُشير له إلى جيب معطفي، نفذت المطر إلى غرز جيبي الذي يفوح برائحة السمسم من السميط الذي أكلته صباحًا، يدخل ويختفي، فأهمسُ له في جيبي: "ما اسمكَ؟"

- **هدايت.**

- **لماذا قتلته؟**

- **كنت أحبه!**

- **كيف كنت تحبه!**

- **كالمجنون يا أخي! كانت تشرق الشمس معه، وأنا أبيع حلوى بسمسم صباحًا. جيبكَ يفوح بسميط كالمسك يا أخي، كانت تشرق الشمس معه وتغرب أيضًا، لا تمر دقيقة علي دون التفكير فيه، كأنني أحلم، كل الكلام يأتي ويذهب لكن يتوقف عنده، كنت أفكر إن تحدث الناس عني تري بما سيجيب، وكنت أقول إن كنت سآخذ شيئًا، تُرى هل كان يأخذه؟ إن أكلت لا ينفذ الطعام داخلي، وعندما لا أسأل نفسي إن سألني**

أحدهم عن الطريق هل دلّه هو؛ لأنه إن لم يدلّه الطريق داخلي أنظر بحماقة، إن رأيت شيئًا جميلاً لا يسعني استحسانه إذا لم أريه، أو لأنني لم أريه إيّاه.

- وما اسمه؟

- بكيزة.

- وماذا بعد يا هدايت؟

- وبعدها...تغرب الشمس. أترك الحلوى ذات السمسم في المقهى، وأركض لأشرب قدحين من الخمر. هل أضاف الخمّار الديوث الأفيون أم ماذا؟ فبمجرد أن أشرب، أجد بكيزة واقفةً أمامي بشحمها ولحمه.

- أحقًا؟

- لا يا صديقي كذب، خيال! ظللت أتحدث الآن يا أخي.

- هدايت، اصمت، أحدهم قادم.

ينكمش هدايت في جيب معطفي كأنه حبّة سمسم. هدأت المطر، كأنّ جزء من السماء أشرق.

نادي هدايت من جيبي: هل لي أن أحكي الباقي.

- لا يكفي هذا القدر.

- حسنا يا أخي، اصمت، كما تريد، هل ستحكي قصتي إلى بانكو؟

- سأحكي يا هدايت.

- لكن الباقي أفظع يا أخي.

- سأتخيل أنا الباقي يا هدايت، اخرج من جيبي، لقد تبلل معطفي، فلا أقوى على حملكما، تعبت.

- حسنا أخي.

تحول السمسم في جيبي إلى برغوث. انطلق وذهب أسفل شجرة البطم بساحة جامع الفاتح، ولمع كشرارةٍ في الظلام. تنهّدتُ. فاسترحتُ، وانشرحتُ. كنت سأحكي قصة إلى خنزير بانكو: طعن هدايت بكيزة في قلبها بمسمار ضخم طعنة واحدة، لم يكن لديه حل آخر. لم يتوقع الأطفال والنساء الذين يتناولون حلوى السمسم من هدايت ذلك، حلوى السمسم لا تسمن من جوع، يبدو أنّ بكيزة قالت إلى بائع حلوى السمسم: "لن أتي"، يبدو أنه أحبها... وهل يسمن الحب من جوع؟ تزين هدايت مساء ذاك اليوم، وذهب إلى تقسيم، وكان معه ثماني عشرة ليرة وسبعة وثلاثون قرشًا، دخل الحانة وشرب كثيرًا، وكلما شرب زيد له، عندما ينظر إلى المئذنة، يجد أنه لن يشاهد

ارتفاع المئذنة في جو السماء مع بكيزة، عندما تسأله امرأة مسكينة هل هذا الطريق يؤدي إلى هيركا شريف، فيتيه هدايت في كنزة صفراء صوفية داخل رأسه، وعندما سألت السؤال نفسه إلى بكيزة أجابتها: "أذاك الطريق أم غيره، من أين لي أن أعرف فاطمة هانم!". ينظر هدايت إلى وجه المرأة المسكينة المندهش مبتسماً، لكنه لن يقوى على قول الأمر نفسه، لن يقوى على وضع رأسه على ركبتي بكيزة التي تفوح كالفرو، والقطط، والأنسجة والمناديل الناعمة، ترى من وضع هذا المسمار في جيبه، ذلك الوقح عبدالله أليس كذلك؟ هو طفلي العزيز، الأسمر ذو النمش والأنف المدبب، لاعب وسط فريق قره قابلان ابني العزيز عبدالله، سيكون هو من وضع المسمار، الوقح الذي وضع نصف تذكرة سينما، ونصف تذكرة مباراة، وفرشاة أسنان، ومفتاح ربط، قفل الباب، وشمعة من حوت العنبر، والعلكة، والكرز المدود، والصابون، بئرة الشمام، والثوم أيحزن لوضع مسمار بحق الجحيم، مسمار ضخم. يلمع. رفيع مثلنا... هكذا تكون القصة جاهزة لبانكو.

- **عمّا تبحث هنا منتصف الليل يا صديقي؟**

- **جئتُ لزيارة صديق. عدت من هناك وتأخرت.**

- **أين تمكث؟**

- **في شيشلي.**

فتشوني. كان معي سبعة وستون ليرة وثلاثون قرشًا وقلم، ومسودة قصة، وصورة بانكو، وقلم آخر.

- **أمَا كان لديكَ محفظة؟**

- **لا!**

- **ماذا تفعل؟**

- **أكتب مقالًا.**

- **أيّ مقالٍ، هل أنتَ كاتب؟**

- **أنا كاتب.**

- **أين؟**

- **توجه إيلي في إقبال عنبري.**

من أين أتي إلى ذهني أن أقول سريعًا قوجه إيلي في إقبال عنبري.

- **هيا لنرى. لا بد من الذهاب سيرًا، فلا تتجول ليلاً في سن الشيخوخة.**

أسير بجانب حديقة الفاتح، بانكو، أحدهم جلس في مكان مبلل، ورفع قدميه وسند رأسه على سياج الحديقة.

وكان يصيح: تحيا الديمقراطية، يحيا الشعب، تحيا الجمهورية!

قلت: لتحيا يا صديقي.

قال: اجلس جواري!

جلست. يا إلهي! حقا كم هذا مريح، مبلل، مبلل، بارد.

- لدي زوجة يا صديقي، إن رأيتها تهرب في الشارع، ولدي ابنتي، ليرزقكَ الله مثلها. هل أنتَ متزوج؟ إن كنت متزوجًا فخذ ابنتي دون مقابل، لديها عين لا ترى، والأخرى تنظر شزرًا إلى الخالق، ولديها أنف، لا تتحمل النشوق، يفوح مخاطها، ويفوح المنديل، وهي أيضا، لا يمكنكَ المرور جوارها، ويفوح منها دم الحيض باستمرار، ولدي ابن، لديه تسعة عشر عامًا، يفوح منه البول، وقدميه أيضًا، والسجائر، وإن قلنا المنزل، فحدّث ولا حرج، فيفوح برائحة الحمام. الله أكبر! انظر إلى هذه الأحجار، غسلتها فهي تلمع، وانظر إلى السياج المطلية بالأخضر! صلبة، لكنها تفوح برائحة الطلاء والمطر كالمسك، وتلك الحشائش، وتلك السحب، وانظر إلى هذه السحب التي تمر بألوانها السوداء، والصفراء، والحمراء، الذهبية! انظر إلى تلك المصابيح التي كبرت في عينيّ وبزغت كالنجوم، ثم تلاشت كالأسهم المُدبّبة! وانظر إلى تلك الشقة التي اغتسلت من رأسها إلى أخمص قدميها، يبدو أنها باردة، يبدو أنها فعلة المطر،

تـدوي. اسـتلقي تحـت هـذا الكـون في الميـاه والضـوء النظيـف عديـم الرائحـة وفي السـحب، اسـتند بـرأسي عـلى السـياج، فـماذا سـتُخرج مؤخـرتي في المـاء؟ يلعـب الكـون في مخيلتـي ألعابًـا لا يتخيلهـا عقـل، يتكشـف البخـار، تُطهّـر المـاء الوحـل والقـاذورات، تينـع الحشـائش، والأشـجار. فـماذا أفعـل في المنـزل؟ اجلـس أنـتَ أيضًـا، لا تذهـب إلى منزلـكَ؛ لنسـتلقي هنـا، وننـام، انتظـر لنشـعل سـيجارة، انظـر إلى ضـوء عـود الثقـاب هـذا، همـس قائـلاً: لن أحـترق، ثـم قال حسـنًا. لأحـترق لأجلـك يـا أمـي. هـل هـذا يحـدث يـا صديقـي؟ أرأيـت حـرارة تشـتعل بعثـرة يـدٍ كهـذه، وضـوء، وعيد؟ ابتسـم يـا صديقي وأجـب، وانظـر إلى الدخـان المتناثـر مـن أفواهنـا! كيـف يتطايـر، أنـت تعيـش يـا سـيدي، لامعًـا، نديـا، تعيـش كالزجـاج، كالبلـورة، كالمصبـاح، كالزجـاج المزخـرف يـا صديقـي، انظـر إلى الدخـان، دخـان سـجائرنا يـا سـيدي! مـا هـذا الـشيء الأزرق؟ مـا هـذا الشيء الـذي يـضيء روح المـرء مـن السـعادة والاسـتمتاع؟ فـدع النـوم مـع امـرأة جانبًـا، وشرب الخمـر، ولعـب ورق اللعـب مـع الأصدقـاء، ومشـاهدة المسرحيـات والأفـلام... وشـاهد الدنيـا، خـذ عينـي وانظـر يـا سـيدي. هـا هـو ذا لهيـب الثقـاب، ودخـان السـيجارة! هيـا لننـم يـا عزيـزي، لكـن قبـل أن ننـام أحكـي لي عـن بانكـو، وعـن الرجـل النائـم المسـتند عـلى سـياج حديقـة الفاتـح، ودخـان سـيجارته، بانكـو رجـل صالـح، عزيـز الـروح، أبلغـه سـلامي.

جيد أنني ارتديت هذا الحذاء، حمدًا لله أنه لا يمتص الماء، الماء في كل مكان حولي، حذائي به تدفئة، وبينما كنت ابتعد مرددًا أغنية "لا يوجد دخان لسيجارتي، ولا إيمان لحبيب، بنيت قصر من ذهب درجاته من فضة"، ناداني من خلفي: " أطال الله عمركَ! أرأيتَ؟ أكان هناك دنيا، يا صديق بانكو! يا ابن السيد فايق".

جلست على دكك (زيرك) وأمامي الوفاء، يلعب نفر من الجن الكرة في شوارع أتاتورك، والرياح تلقي السحب من مرمى إلى أخرى، قلت: "تسلم مباريات كرة القدم"، وددت أن أفكر من أي أطراف الدكة سأنزل، ولأول مرة في حياتي أشرب الحشيش في بورصة، بينما كنت أنظم الشعر لسهل نيلوفر جالسًا على دكة بباحة المسجد الخضراء، فتعجبت من أين سأنزل، دعوت أحد المارة وعندما سألته : "من أين أنزل يا أخ؟"، نظر المسكين في عيني خائفًا، وابتسم بعدها، وأمسك يدي وأنزلني، فوضع ناظريه على مظلة قبعته، وقال: "لا تفعل هذا مجددًا أيها الشاب، النزول سهل، يأتي أحدهم وينزلكَ، لكن إن لم تستطع الصعود، فلن تنجح بعدها".

فلم نعد نستخدم شيء كهذا، لكن لنرى من الآن فصاعدًا صعود الدكة، لننسى الذراع الذي أنزلني.

العيب عندكَ يا بانكو، أنتَ من فعلت بي هذا، تجولت منتصف الليل من أجلكَ، أنتَ من فعلتَ هذا.

نظرت، فثمة كلب مستلقي أسفل دكة منحدر (زيرك). جلست جواره، فتح عينيه، نظر محركًا عينيه يمينًا وشمالًا، داعبت رأسه خوف؛ فأغمض عينيه، فأطلت معه الحديث وقلت: " بني يا ذا العينين الجاحظتين، أنا إنسان، وأنتَ حيوان، كلانا كنا ديدان قبل ملايين السنين، كنا خراطين، مخلوق من خلية واحدة، وكنا قبل ذلك ذرة في الفراغ"، وبعدها انظر إلى ما صارت بنا الأمور، ربما نظل هكذا بعد ذلك، وربما نتغير، لكن دعنا لا نظل هكذا، فأنتَ سيء الحظ وأنا أيضًا، هناك من ينام في المنازل، ومن ينام على الحرير، ومن هو ينام في حضن امرأة، وهناك كلاب تتلوى بجوار مدفأة، وهناك من يجمع عظام من المطاط، يلقون نسائهم ويركضون لإحضارهن، يذهب الحراس صباحًا للتجول، هناك أناس يحتضنون من يحبونهم في هذه الساعة، وهاموا في حلم شخصين، حسنا ماذا نفعل؟ لكن أنتَ كلب شارع أجرب في زيرك من دون ذنب ولا فراء ترتعد من البرد، وأنا صديق بانكو، لا شيء سوى هذا، أنا رجل مسكين في وسادة متسخة لطمته الأمطار، وأصابه الأرق، عصبي، قلبه في شارع

شـجرة الفراولـة، ورأسـه يبعـد عـن موقـف قطـار بومونتـي مئـة مـتر، فـماذا نفعـل؟ لنتخيـل أننـا سـنعيش يومًـا مـا في عـالم مـليء بالقلـوب التـي تنبـض بالشـعور بالمسـئولية خُلقـت مـن الصداقـة، مـن البـشر، والحيوانـات، والأشـجار، والطيـور، والعضـب، ولدينـا أخـلاق مـا ذُكـرت في كتـاب قـط، أخـلاق تنظـر بحـيرة لمـا نفعلـه اليـوم، ومـا سـنفعله، لمـا نفكـر فيـه، ومـا سـنفكر فيـه، حينهـا تـدوم صداقتنـا طويـلاً يـا جاحـظ العينـين، حينهـا لا تقـل، صديقـي بانكو سـيوافقني الـرأي، فلـن يتحـدث عـن أخـلاق الكنيسـة، وسـيروي جمـال صداقتنـا الرائعـة لأطفالـه.

صادفـت رجـلاً في جـسر أتاتـورك، يتكـئ بيديـه عـلى أسـواره، يجيـش للخليـج، وقفـت جـواره، ارتفـع بعدمـا داس عـلى طـرف حذائـه عـدة مـرات، وتوقـف بعدهـا، أخرجـت منديـلي وذهبـت لأمسـح وجهـه، مسـحت فمـه، ومشـطت شـعره المتسـاقط عـلى عينيـه بيـدي، وعندمـا أدار وجهـه إليّ، نظـر بعينيـه السـوداوين الواسـعتين بـوُدٍّ: "شربـت كثـيرًا يـا عمـي"، فلـم أتكلـف.

قلـت: يجـب عـلى الشـاب أن يـشرب، وعندمـا يـشرب؛ يـشرب كثـيرًا.

- **بالله عليكَ يا عمي، أأنتَ مثلنا أيضًا؟**

- **في وقتها.**

- أكنتَ تشرب كثيرًا؟

التصقت شفتاي؛ فلوحت بيدي مرتين أو ثلاثة في الهواء، أفعل هكذا يا بانكو أيضًا، وستفهم ماذا أريد.

قال: واضح، واضح يا عمي، لم يعد هناك نور في وجهكَ.

غضبت: النور داخلي يا بني، داخلي يلمع. داخلي يفيض بالحب، والصداقة، على الأقل هذا المساء، فلا تنظر لنور الوجه، كذب، خداع.

- أهذا رأيكَ؟

أمسكته بينما كان يبتعد مرددًا أغنية "أقالوا هذا، أقالت العروس السمينة هكذا".

قلت: لا، لن أتركَ، أحكي لي أين شربتَ؟

- أين سيكون يا عمي؟ دعكَ عن محادثة منتصف الليل بالله عليكَ، عدت إلى صوابي الآن، سأذهب لأنام، سنستقل الحافلة غدا مبكرًا، إن لم ينيمنا الكهل، فستقوم القيامة.

فما ستفهمه هو أن هناك زوجة تعيش في ذلك البيت المقابل، زوجة يهودي، ذهب زوجها إلى أنقرة، فدعانا، ذهبنا، وشربنا معًا، ألن نشرب حتى منتصف الليل؟ يبدو أنه رجل وقح، عندما رآنا أمامه، لم يتفوه بكلمة، جلس في زاوية، وكانت

زوجته وقحة أيضًا كأنها بمفردها في الغرفة، فكانت تعمد إليّ ولنفسها وللرجل بالراقي، شربنا سبع كؤوس دون التفوه بكلمة.

قلت: أودّ أن أستأذن.

قالت زوجته: تفضل يا سيدي.

امتقع وجه الرجل، وقال بلغة تركية رائعة: بشرف المستقبل.

امتنعت، ولا أعرف ماذا حدث في المنزل.

قلت: يا إلهي، اتبعني.

قال الشاب الوسيم سائق العربة الشجاع: أو اتبعني أنا.

وصلنا إلى الجانب الآخر من ضفاف الخليج مهرولين من الجانب الآخر لجسر أتاتورك، وسمعت صرختة من (أونكاباني)، عندما كنت في (أزاب كابي)، كان يقول: "اتبعني".

ها أنا ذا، جئت على حيكَ هكذا يا بانكو، بدأت المطر يهطل مجددًا، تحطم إناء أمام منزلكَ، نصفه محطم، والآخر سليم، جلست داخل الإناء، وبدأت أحكي كيف مرّ منتصف الليل عليّ في عتيقالي باشا، وكيف دخل هدايت في جيبي، والرجل المستلقي بحديقة الفاتح، وكلب الشارع، وسائق العربة مطارد النساء لزوجة اليهودي.

كنت نائمًا أنتَ.

أوقظتك: "بانكو، بانكو."

نفذ صوتي من نافذة، وجال ولقي أذنك، فنمتَ، لكن لم يعد لدي صوت ولا قدرة لأصل إليكَ، خلدت إلى النوم مجددًا، ومرّت حافلة.

قلت: أذاهب إلى بومونتي يا أخي؟

فقال: أركب!

ركبت.

***

الإنسان الذي خلفته الوحدة

نظرت أبرد عندما نزع ياقة معطفه المغطاة بالفراء! فقد أصفر وجهه الأسود الشاحب كشمع العسل.

سألته: بردتَ؟

رفع حاجبه، فلا يوجد دم في موضع البثور في صدغه، توقفت، أمسكت بوجهه بين كفي ودلكته.

سألته: ماذا حدث لكَ؟

ابتسم، وبصق على الظلام، وهز رأسه يمنة ويسرة بشدة.

فقال: أصبح هكذا أحيانًا.

قلت: لندخل حانة.

قال: لندخل، لندخل، لكن لن نشرب الآن.

قلت: دعنا نشرب.

قال: ستموت يا هذا.

قلت: سأموت.

نظرنا إلى القدحين في أيدينا فكم كان وجهه هادئًا، صامتًا، أسمر وشاحبًا أيضًا لكن منتعش.

قال: وجهكَ مرهق.

قلت: مرهق.

أكل الفستق، وشرب الخمر فأكلت الفستق، وشربت الخمر، همس بكلمات في أذني، كأنني سيغشى عليَّ، ونظر إليَّ متمعنًا.

قال: طعنتَ في السن.

قلت: طعنتُ.

نظر إلى شعري، وفي عيناي فابتسم.

قلت: لا عليكَ، يا إلهي، لا تعبأ!

كان سيدفأ، فنزع معطفه ذي الياقة الفراء، قلت في نفسي: ياقة معطفه فراء، ياقة معطفه فراء، قال أحدهم بداخلي: يعني ماذا سيحدث؟ ماذا سيحدث؟ سآمر بصنع واحد مثله.

قلت: ألن أراكَ مجددا؟ غضب وقال: ذلك ما أعرفه.

وبعد يومين سألت عشرين واحدًا ماذا يعني: "ذلك ما أعرفه"، فلم يُجِبْنِي أحد بمعنى صريح، فلم يمر يومان، فكنا معًا في حانة.. لم أكن أرى ما حولي، ولم أكن أراه هو أيضًا. أنرى الهواء؟ فشردت.

- **قال: انهض لنذهب.**

- **قلت: إلى أين؟**

- **إلى المباراة.**

- **أي مباراة؟ أيوجد مباراة في هذا الوقت؟**

- **المباريات في أوروبا تُقام مساءً.**

لم أقل: "لا تُقام هنا هكذا"، نهضنا ونزلنا من منحدر فوقفنا في مكان، فخلع ثيابه، وانضم للاعبين الذين يلعبون في ضوءٍ خافتٍ في بداية سلم بالأسفل. سمعت أصواتًا، وصافرات، وشتائم، نظرت حولي، فوجدت آلاف البشر، أتى إلى جواري بعدها، فسألته: أتلعب؟

فقال: أعُمِيتَ؟ ماذا تراني أفعل؟

- **أنتَ أيضًا تلعب.**

- **هل أنا أيضًا ألعب، ماذا ألعب؟ ابتسم، فرأيت أسنانه، فكانت أحدها مكسورة.**

- **أنتَ تلعب دور الرائي.**

- **أحقًا هذا!**

كنت أنا الرائي، فبدأت بإحداث الجلبة والتصفيق، بردت، رفعت ياقة معطفي، فأنا من وضع فراء الماشية كالذي لديه،

فشعرت بدفء الفراء على صدغي لم أتحرك بعدها، اختفى المشاهدون، واللاعبون أيضًا، فلما جاء إلى جواري.

قال: انتهت المباراة.

قلت: هذا جيد، من فاز؟

أجابني: هم!

قلت: هذا لم يحدث.

قال: من تريد أن يفوز؟

قلت: فريقنا.

قال: من فريقنا؟

أجبته: أنتم.

قال: نحن؟ أكنتَ تريدنا أن نفوز؟

- **نعم، بالطبع.**

- **لماذا؟**

- **أيوجد من أعرفه في الفريق الآخر؟**

سألني: أيوجد في فريقنا من تعرفه؟

- **أجبته: أنتَ.**

قال: أحمق، فأنا أيضًا لست موجودًا.

قلت له: لكنني أراكَ.

سألني: ماذا كنت ألعب؟

- **مدافع!**
- **أحقا رأيتني!**
- **أسقطكَ أحدهم.**
- **أسقطني.**
- **أنتَ تعرج.**
- **أعرج، وما شأنكَ؟**
- **لا شيء، ليس لي شأن.**

ارتعدت وفقدته فجأة، ناديته: "بانكو، بانكو!"، لم يجب، فناداني أحدهم من الظلام: "إسحاق، إسحاق." لم أجبه، لم يكن الصوت صوته، لكن بعدها أجبت: "ماذا هناك يا هذا؟"؛ لعلّي أتلقى خبرًا عن صديقي، مجددًا نادى الصوت: "إسحاق، إسحاق".

- **أجبت: ماذا هناك يا هذا، ماذا هناك؟ أنا هنا!**

فقال: تعرفت على أصوات قدميك المقتربة تجاهي!

كان معه ثلاثة شباب، أما الأول، فكان قصير القامة، بوجه أرميني. وأما الآخر، فارتدى سترة بائع سمك، بوجه شاحب. وأما ثالثهما، فكان طويل القامة، فكانوا يتحدثون لغةً سمعت كلماتها منهم آلاف المرات، لكن لا أعرف معانيها، فلم أفهم، هم في الأمام وأنا من خلفهم صعدنا منحدرًا، فوصلنا إلى الشارع، الشارع أسفلت، الضوء داخله، والأرض مبتلة، توقفت الأمطار.

حدثت نفسي قائلًا: هطلت الأمطار.

ضيعتهم، ووجدتهم عند شباك السينما، وكان هو أيضا ينتظر عند الباب، كان يشتري تذكرة، كان طويل القامة يضحك مع ذي سترة الصياد، كان هو أسمر اللون، هادئًا ساكنًا، كأنه اهتم بي دون أن ينظر إلي.

حاولت إظهار نفسي، فاشتريت أنا أيضًا تذكرة، جلسوا هم في الأمام ووقفت أنا في الزاوية، كنت أرى تحركه يمنة ويسرى في الظلام، كان يتحرك يمينًا ويسارًا مع الرجل الذي أمامه، ثبت في مكانه قليلاً، ووضع يده على خده، وأمعن في المشاهدة. اعتدل مرة أخرى، وأخذ يأكل أظفاره، فصاح رجلٌ أربعيني ذو معطف من بين الحشد: "لا تأكل ظفركَ!"، وابتسم، أُنيرت الأضواء، واختفى أصدقائه ثلاثتهم، واقترب منه الرجل الذي قال له لا تأكل أظافرك، وجلس فتحدثا لكنني لم أسمع، أخرجَ

صديقي القديم من ذراع معطفه ذي الياقة الفراء وشاحًا، ولفّه حول رقبته، كنت أرى شعره الأسود، استدار ونظر فلم يعرفني كأنه ينظر إلى حجر أو جدار.

- **فتحت فمي لأقول: "هذا أنا يا هذا، أنا صديقكَ، أنا إسحاق".**

ملأ هواء السينما العميق رئتيّ كالماء فصمتُّ، فنهضا ومرّا من أسواق مضيئة نظرت من خلفهم بحزنٍ كأنني بقيت وحيدًا، دخلت إلى مطعم متحدثًا لنفسي، وكانت صاحبة المطعم امرأة، كانت لديها شامة على خدها كأنها مازالت فتاة في ريعان شبابها، سلّمت علي مبتسمة كأنني صغرت سريعًا عشرين عامًا، عندما كنت أمرض كثيرًا تقترب حرارتي من الأربعين، وتتورم يدي لتصبح عملاقة، وكان كثيرًا ما يحدث هذا وأنا صغير.

فكنت أصرخ: يدي تتورم.

فكانت جدتي لأمي أو أمي تأخذ يدي في يديها الباردة وتقولان: "لا يوجد شيء، يا صغيري لا يوجد شيء! انظر يدكَ في يداي"، كنت اهدأ لبضع دقائق، وتعود يداي لتتورم مجددًا.

تتورم يداي، يا إلهي كم أنها تتورم؟ فتصغر يدي سريعًا من البرد عندما أخرج للشارع، كنت في الشوارع، كنت واحدًا مقابل آلاف، أو واحدًا مقابل عشرات الآلاف.

صرخت من داخلي: بانكو، بانكو!

نظرت إلى الساعة إذا بها الحادية عشرة إلا الربع، الشوارع خاوية، ولم يتفرق من كانوا بالسينما، ولم يصطدم بي السكارى، مررت من بينهم كالأفعى، الجميع كان يشبه بانكو، كان الجميع يذهب إلى المباراة، ركضت وراء الشاب الذي نزع فراء معطفه، جال بخاطري أن أمسكه من ياقته، وكنت سأقول: "لنذهب إلى المباراة"، لا، لا سأصطحبكَ إلى المطعم الألماني، يقدمون سلطة البطاطس، هل ستأكل شبيتسل[1]؟" ليتني ذهبت إلى حانة في ذلك الممر وجلست على تلك الطاولة وأتى الناس وجلسوا أزواجًا، رجل وامرأة، فأنا بمفردي، بمفردي وسط ملايين، الجرح يؤلمني بمرور الوقت، ألم مر كالحنظل، أو كالسم، أمر وجدناه بعد ضياعه، أتعرف ما هو؟ أتعرف ما هو؟

لم تستطع معرفة ما لم يمكننا إيجاده دون فقده، أرفعه، أضربه! مَنْ نظر مِنَ النافذة؟ لماذا نظر؟ أغلق عينيكَ، أتتورم يديكَ؟ لا، لا تتورم، لا تتورم، فلتحيا، لكنها تؤلمني، لا، لا تؤلمني، لا تكذب، أليس كأن ثمة شيء فوق قلبكَ؟ كذب، قرأتَ في مكان موثوق، أو أن أحدهم قالها، أو أنها ظلت في عقلي هكذا لا يوجد ثمة شيء على قلبي، الوحدة، الوحدة رائعة، ليست

(١) -أكلة ألمانية

رائعة، مر الحنظل، وما هي مرارة الحنظل أيضا؟!

جعلت أحدهم يحضر لي الفطائر الساخنة، لو كان هو لأكلها الآن، لا أعرف كيف يأكل الطعام، ياقة معطفه من فراء الماشية، وهناك أثر دمل قديم في خده، ولديه بشرة شاحبة سمراء كأن الدم لا يجري أسفل جلده، شعره أسود، وعيناه أيضًا، فماذا يُنتظر منهم إن لم يكونوا سودًا؟ فأنا أحب السواد الهادئ واللون الشاحب الحاد كأن الدماء لا تجري من تحته فقط فيكَ، فلا أحبه في غيركَ.

جعلت أحدهم يحضر لي الفطائر الساخنة، ونظرت إلى النجوم، ها هي، أيوجد نجوم في الحانة! نظرت إلى النجوم، وهمت في السينما، بالأمس كان يمر من هذا الشارع ركضًا، وكانت الساعة الخامسة إلا الربع، ودخل السينما ركضًا، ظللت أنظر خلفه، ولم أستطع الولوج، فهو يُحدث جلبة ولا يتحدث لم يتفوه بكلمة، وحينها حينها أخذت أتعرق كأنني دخلت إلى مكان يخرج منه البخار بكثافة، وبعدها أمطرت ثلجًا فوقي، يهطل الثلج محدثًا صوتًا خافتًا، ثلج يتساقط قطرة قطرة، أفكر في المسدسات، والسكاكين، لا أحب السكاكين، المسدسات فثمة ثقب في عقلنا وحوله سواد ثقب غريب، سال الدم ببطءٍ، وسد ثقب العقل سريعًا فخرج سائل كالصديدِ.

وماذا بعد ذلك، ذلك هو الثقب الذي في رأسي، أيجب أن يفتحه؟ يجب أن يفتحه، فكيف يمكن التخلص من الوحدة؟ أفقط الموت؟ لا اثنان موتى بين الناس، بين ملايين، ثلاثة موتى، أربعة، خمسة، دعكَ وعد الموتى! هذا هو الكأس الخامس، دعكَ أيضًا وهذه الحانة، وما خارج الزجاج، فلن يأتي، كنّا في السينما، فأخذ الرجل الذي خرج من الشقة الطائرة مصباحًا صغيرًا، وخرج إلى الشارع ومن خلفه طفل.

ينتظر الشقة الطائرة حارسان، وأمامها إنسان آلي.

لم يستطع ذو المعطف الفراء الخروج ومازال الفراء باردًا، فوضع يده على خده ذي أثر الدمل، شفتي الفراء تقبله، فارتعد وتذكرني، اهتز، وكان على الطاولة نموذجًا لبحّار من الجبس فزت به في مدينة أوروبية بعيدة في ساحة احتفال وضعت النقود تحته.

- **أأعطاك البحار نقودكَ؟**

- **أعطاني، شكرًا للبحار.**

- **شكرًا للبحار!**

كنت استغرق في النوم العميق في أيام الصيف عندما يتمدد جواري، ولم أكن أرى شيئًا في حلمي، أي شيء، أيوجد أجمل من

لا شيء؟ وإن كان أعطني لقمة! في ذلك الوقت لا يوجد أفضل من الموت.

قفز رجل أتى من نجم آخر من سيارة الأجرة ومن خلفه الجيش كله ومعه أمر بإطلاق النار؛ فأطلقوا النار والتفّ الجنود حوله.

جننت عندما تأخر، وغضبت عندما أصبحت أصوات الأقدام على السلم غريبة فجأة ومن بعدها أصوات أقدامه، كنت قد تركت الباب مفتوحًا، فكأنه أتى من كوكبٍ آخر، كنت أقبله من عينيه.

لابد أن يخرج، لا بد أن يخرج من هنا، انتهت السينما، لا بد أن أسير وسط الشارع وفوق ظهري حظي، وفوق ظهري نفسي، ولا بد أن أدخل الحي، وأرى المنازل، وأرى النوافذ المُضاءة بأنوار خافتة منتصف الليل، لا بد أن أُطيل النظر إلى منزل رقم اثنين جالسًا على الردم إلى أن يظهر الحارس، هناك أواني زرع في الشرفات بالأعلى فوقها خراب ومن تحتها أيضًا، ووسطها رائع في أي خراب يكون، لا بد أن تُضاء الأنوار، كنت أمر بتؤدةٍ من ممر.

- **"هنالك لص! هنالك لص!"**.

لا بد أن يركض في الشوارع، لا بد أن يركض، الحراس والشرطة والصافرات من خلفي، لا لم يسمع أحد فأفتح باب غرفة صغيرة، فإذا به داخل سرير خرب وقدمه بالخارج، بل قدميه بالخارج وضعت قدميه داخل اللحاف، فكان يأخذ نفسًا عميقًا، وأدار ظهره لي، فنظرت، أثر الدمل في الجانب الآخر، وهناك احمرار جميل في وجهه الشاحب بحدةٍ وغرابةٍ، حواجبه رطبة، وشفتاه جافتان كاد المصباح ينطفأ، ومريم ترتعش، من في هذا السرير الصغير؟ انحنيت لأنظرن، لديها عينان واسعتان، وبشرة غاضبة، فلا تستطيع الصراخ.

قلت: اصمتِ، اصمتِ.

وضعت يدي على فمها، فاهتزت.

فقلت: أنزع يدي إن لن تحدثي ضوضاء.

تفتح عينيها السوداء وتغلقها، نزعت يدي من فمها، وبعدها ذهبت وجلست على السرير الآخر، وهو مازال نائماً أجول بعيني حوله ، المعطف ذو الياقة الفراء هناك، فارتديه، أتجول في الغرفة ومعصماي خارج المعطف، والفتاة الصغيرة تنظر إليّ، تضحك واضعة يدها على فمها، فأنهض من فوق الأنقاض وأخرج إلى الشارع، فلا يوجد سوى السكارى في الشوارع والقوادين، وهذا، وذاك، جميعهم سعداء، جميعهم يحملون

حظوظهم وأنفسهم على ظهورهم، وحيدون، وحيدون، وإن كانوا نائمين بجوار أزواجهم، ليتني أجد مكانًا مفتوحًا، ليتني أشرب الخمر أكثر، لا جميع الأماكن مغلقة، وهو مازال نائماً، وحواجبه رطبة، لن أضع وجهي أمام أنفاسه، فسبحت واحدة من الوسادتين من تحت رأسه ووضعتها عند قدميه، والتففت هناك ونمت، فتورمت يداي، وتورمت، وتورمت.

***

أفعى في ألما داغ

أخذ الثلج يهطل قبل أن أدخل المسرح، وعندما خرجت وجدت الساحة بيضاء ناصعة، سقطت قطرة داخل رقبتي، فارتعشت.

صرخت قائلاً: "انزع يدكَ من فمكَ، ولا تأكل ظفركَ"، التفت اثنان يسيران أمامي ونظرَا، فهدَّءا من خطواتهما ليرا وجهي، أشعر بالوحدة كأنني كنت معه كل مساء، فكان يأتي أيام الجمعة مساءً، وكان تمثال البحّار الذي يحمل في فمه غليونَ التبغ ينتظره، كانت الشمس ترسم رقم ثلاثة على الستارة المصنوع من المشمع، وعندما كنت انتظره في الأيام التي كنت متيقن أنه سيأتي فيها كنت استغرق في النوم، وكيف أنني داخل الحلم كنت أسمع طرقه للباب الذي يشبه الخدش، فانطلقُ من الفراش وافتح الباب، لونه ممتقع، يتنفس من فمه، و يأخذ سيجارة من فوق الطاولة ويُشعلها.

كان العالم هناك فيوجد هنا خزانة ذات أدراج، ومرآة، وبحّار من الجبس، وسرير، ومرآة أخرى، وهاتف، وكرسي، وكتب،

ومجلات، وأعواد ثقاب، وأعقاب السجائر، ومدفأة، وبطانية، كان العالم هناك، هناك طائرات في السماء وبداخلهم مسافرون، والقطارات قد ذهبت، أحدهم يمضي، والآخر يدفع النقود، هبّت نسائم الليل، فخرج سميط المساء للدنيا.

دوي صوت بائع السميط في الغرفة، كان العالم هناك.

يثقب بائع التذاكر التذاكر، ويقرأ رجل وطفل جريدة، وشاب ذو حواجب سوداء طويل القامة متمدد شاب وسيم وقوي، ورقد على يميني شخص رفيع واضعًا يديه في جيوب بنطاله، وترك الطفل الجريدة، وطوي معطفه تحت رأسه وتمدد هو الآخر، وكنت في غرفة الباخرة السفلية.

كان اليوم يوم الجمعة، والمدرسة في عطلة، فكنا نجلس في شارع مسجد الكرز بالسليمانية، وكان عمري سبعة عشر، أتذكر شجرة الصنوبر لنزل منير باشا، ربما شجرة الصنوبر الضخمة الموجودة في حديقة المدرسة الثانوية احترقت في أحد الحرائق، وكذلك أسقف نزل منير باشا المطلية بدهانات زيتيه أصبحت دخانًا ورمادًا منذ زمنٍ، واحترق بق الفراش أيضًا، واحترق سريري ولحافي حتى دموعي، واحترقت الأحواض، واحترقت الأشجار التي لا تسقط أوراقها خريفان الذكريات احترقت الذكريات احترقت يا ولدي احترقت، والكتب التي أتت بي

إلى اليوم احترقت. لا بد أن أجد فراء تقليدي من جلد الغنم لأخيطه في معطفي.

كان يوم السبت، ومجددًا أنا في غرفة الباخرة السفلية، ومجددًا الطقس مثلج، ومجددًا إسطنبول قبيحة، هل إسطنبول؟ إسطنبول مدينة قبيحة، مدينة قذرة، ولاسيما في الأيام الممطرة، وهل جميلة باقي الأيام؟! لا ليست جميلة، ففي الأيام الأخرى يصبح الجسر به نخامة، والشوارع الجانبية موحلة، وبها حطام، والأمسيات ممتلئة بالقيء، وأدارت البيوت ظهرها للشمس، والشوارع ضيقة، وتجارها غلاظ، وأغنيائهم غير مكترثين، فالناس كذلك في كل مكان؛ حتى النائمون أزواجًا على أسرة مذهبة يشعرون بالوحدة.

الوحدة تملأ العالم، الحب، يبدأ كل شيء بحب أحدهم، ولكن هنا ينتهي كل شيء بحب أحدهم أيضًا.

مكان جميل، ألما داغ مكان جميل، حيث الأشجار التي طولها خمسة عشر مترًا في هذه الساعة وحي طاش ديلين وأفعتها أيضًا، لكن في الشتاء الأفاعي في جحورها، وليكن، فطقس ألما داغ معتدل، وأشرقت الشمس بين الأشجار ذات الأوراق الحمراء، فتهطل أشياء معتدلة من السماء وتتجمع فوق الأوراق الذابلة، وتتقطر طاش ديلين كالإصبع، الكأس الذي يلمع أحرقنا من

الداخل في البداية ثم تعرى كليًا وأحرقنا من الخارج، أتي أرنب وأفعى وطائر الشحرور وحجل من بولونيزكوي فارين إلينا ليشربوا الماء، ونحن نلعب مع ماعز.

عندما ناديت قائلا: "بانكو، بانكو!"، ثبتت الأفعى والماعز والحجل والأرنب في أماكنهم كأنهم تحجروا، وامتقع لونهم، فأخرجت سكينة حادة من جيبي وجرحت أذن أحدهم وجناح آخر، وعندما تقطر الدم بدأوا يتحركون وتركوني وركضوا إلى بانكو، ظهر بانكو بابتسامه، وكذلك جرح الدمل الذي في وجهه الشاحب ذي الملامح الحادة كعادته، ويقبل طيور الحجل من مناقيرها، ويسحب الأرانب من شواربها، ويلف الأفعى على خصره، أحضر كرة، كرة قدم، أنا حارس مرمى، والأفعى أيضًا حارس، والبقية نائمون على الأوراق، يلعبون تحت الشمس، يلعبون لساعات وعندما تسكن الكرة شباكنا أنا والأفعى ننسحب جانبًا ونشاهد، فنفسد اللعبة.

ألما داغ جميلة، ألما داغ، إسطنبول في الوحل، سائقو الأجرة يرشون تجمعات المياه على الناس عنادًا وتمطر ثلجًا عنادًا فينا.

ألقت أحدهن قطة من الدور الخامس، وإذ بامرأة ورجل أجنبي عند القطة، وتنزف القطة دمًا من أنفها قال الرجل بالفرنسية: "ماتت بسبب النزيف المسكينة".

وقالت لي المرأة بالتركية أن القطة أُلقيت من الطابق الخامس، نزيح الآن القطة الميتة بجانب الجدار السميك المرتفع لحديقة مدرسة غلاطة سراي، والمرأة في الطابق الثالث تلقي الفحم في المدفأة، فكم كان الطقس باردًا، ليت الثلج يهطل فعندما يهطل الثلج يصبح الطقس معتدلًا بعض الشيء.

متى عاد بانكو من ألما داغ! مرّ من جانبي مع صديقه فجأة كأنه مر بجوار جدار أو قطة ميتة، فاصطدمت أكتافنا خفيفًا وانفتحت الجدران، الناس التي ضاقت ذرعًا من بعضها بعض، لسنواتٍ شعروا بالشعور نفسه فجأة قبلوا بعضهم كأنهم يتصالحون قائلين: "هذا يكفي"، أعود ومازال بانكو يذهب مع صديقه باسماً، ركدت المياه الخضراء العكرة في حوض نزل منير باشا الذي تفحم في الحريق فلم يكن يظهر ما في أعماق المياه، لكن عندما أغمض عيني كنت أرى أن هناك عشرة قروش ملقاة تلمع، فذات يوم ألقينا صديقنا الذي أصبح حاكماً فيما بعد في الماء بملابسه بعد أن أعطيناه خمسون قرشًا.

لم أكن أعرف المقهى التي دخلها بانكو مع صاحبه، وكان ذلك المقهى في الطابق الأول لمبنى بين عمارتين مفتوحتين على مصراعيهما؛ حيث يوجد عند بابها بائع أدوات معدنية يبيع قدور من الألومنيوم، وأكواب من النايلون، عندما رأيتهما يدخلان

من هذا الباب قلقت، فدخلت أنا أيضًا ونظرت؛ فإذا بباب من الزجاج أمامي ومن خلف الباب الزجاجي بهوٌ كبيرٌ، وهناك أناسٌ يلعبون الطاولة وألعاب الورق، ويوجد في زاوية أخرى طاولة بلياردو، عندما دخلت نظر الجميع إليّ؛ ولأن رواد المقهى لا بد أن يكونوا هم أنفسهم دائماً، رمقوني من رأسي لأخمص قدمي، حينئذٍ سيكون الجلوس وشرب القهوة بمثابة عذاب جهنم فتظاهرت بأنني أبحث عن أحدهم، أموجود السيد لوقا؟ عامل البناء، الدهان، كنت سأسأل عنه، فهو يرتدي نظارة وله عرق يوناني، لكنه أرناؤوطي، أردت أن أسأل بائع القهوة عنه، ونظرت فوجدت بانكو يداري السيد لوقا محاولًا ألا يظهره لي، فنظر إليّ كأنه فطنٌ لكوني جئتُ من أجل شخص أعرفه مسبقًا كان يبدو مبتسما، قلت: "جازاه الله ذلك الديوث"، التفت، عندما كنت ذاهبًا التفت مرة أخرى لأنظر فرأيت مجددًا صاحب المعطف ذي ياقة من الفراء.

عندما رأيت الفراء استرحت فتذكرت الأرنب، وطائر الحجل، والأفعى الملساء الجميلة جدًا، وطائر الشحرور، وألما داغ، ومياه طاش ديلين، والأوراق الذابلة، والشمس التي كانت تتساقط على الأوراق مثل حبات المطر.

***

حلم بانكو

كانت تدور أشياء غريبة داخل المنزل، وكانت الأصوات، والنداءات، وأوقات الطعام، حتى الوجوه كما هي دائماً ولو في مظهرها فليت أماكن الأمتعة كلها تغيرت، وانقطعت الأصوات، وتغيرت أوقات الطعام، وليت لا يوجد الهواء الذي يخالف كون كل شيء على ما يرام دائماً، فيتوقع المرء حينها أن يضع الطاولات، والكؤوس، والكراسي في أماكنها، لا، فكل شيء في مكانه، ويستيقظ أخي الصغير كل يوم في الوقت نفسه، ويغلي الشاي في الدقيقة ذاتها، وتنبعث رائحة الخبز الذي سيوضع في أواني الصغير إلى أنفه وهو على السرير، والصغير جالس أمام المدفأة وكان صباحنا هادئًا مطمئنًا متواضعًا كالمعتاد، فقال أبي: "لابد أن ينهض بهدوء ويرتدي ملابسه".

وعندما تمر أربعة دقائق على الثامنة والنصف في الساعة الموجودة فوق الخزانة تناديني أمي: "هيا يا بانكو، يستعد والدكَ".

وأنا أتذمر كالمعتاد، وألتفت يمينًا ويسارًا، عيناي جاحظتان أفكر في هذا وذاك وصديق لي، والعطلة، وذهابي إلى السينما مساءً.

فخرج والدي هذه المرة وقال: "بانكو، بانكو الحمار! بانكو الكسول! ستتأخر".

سأتذكر دائمًا صداقة كلمتي الحمار وكسول لي.

عندي واحد وعشرون عامًا، وأبي أربعون، كأننا أخوان فأحيانًا يبدو أصغر مني، أبي نجار، وأنا كهربائي ونقيم في شارع موحل بحي باي أوغلوف، وبمجرد أن أنهي عملي في الأمسيات أركض إلى المقهى فألعب القمار، وأبي يعلم ولا يكترث إن كان يومًا في الأسبوع فلا بأس، بعدها أعمل كالنار، لكن صباحًا لا أستطيع أن استيقظ هكذا أبدًا، فنصبح عاطلين أحيانًا، ويستمر هذا لشهور، فتأتي أنتَ لنجدتي.

أنتَ من تشتري كتاب الصغير وكراسته، الساعة التي في معصمي خاصتكَ، ومديون لكَ أيضًا بذاك القميص.

الخمسة وثلاثون قرشًا التي تعطيها لي، تصبح خمسة وثلاثون ليرة في القمار، فأعطيهم ما ذكرته وأخذ النقود، ويعمل أبي في بعض الدكاكين التي يعرفها مقابل خمسة، أو عشرة قروش، أنهض عندما تدق الساعة العاشرة إلى المقهى وأبي يعلم هذا، لكنه لا ينطق، لكن الغريب هو ارتسام خط عميق بين حاجبيه للغنى أكثر مما كان عليه وهو يعمل، لكنه ذات يوم لم يعد يغني لي الأغنية التي أحبها كثيرًا.

معًا للأبد،

سنتقابل مجددًا،

معًا للأبد..[١]

أتظن أن أجواء المنزل تتغير في مثل هذه الأيام؟! لا، ربما يخيم صمت خفيف على المنزل، يخيم، ولكن أنا أذهب، صمت أهل البيت لأنني سعيدٌ ومسرورٌ جدًا، أعود متأخرًا ليلًا، ونذهب معكَ إلى المسارح، وأتأخر في لعب الألعاب الورقية، لكن يتأخر الوقت مهما يتأخر، عندما أعود إلى المنزل وبمجرد أن أدخل في أجواء تولدت من المواقد المطفأة، وأنفاس أبي وأمي وأخي الصغير فالعالم ملكي، وأغط في نوم عميق مفكرًا فيكَ قليلًا قبل أن أنام، فأنتَ بخير، وسعيد، لكن لديكَ ما يغضبني، ولا أعرف ما هو، رأيت حلمًا الأسبوع الماضي، يمشي رجلان في الطريق أحدهم شبهته بكَ، وركضت لأرى ترى من بجواره! كم هذا غريب ألم أكن أنا من بجواره!

قلت بعيني: إلى أين تذهبان؟

فلم تجب، ففكرت هل أنا سأكون شخص مختلف عني، وهل هذا ممكن في الحلم فقط، أردت قول كلمات، لكن قال من معكَ الذي هو أنا: وما شأنكَ، لنذهب أينما نذهب.

(١) -pando mazi, ta vri stomaste, pando mazi- أغنية يونانية

أردت أن أجيب على الرغم من أن أنا المنفصل عني يمكنه التحدث وأنا لا يمكنني، فأيقنت أنني في حلم داخل حلم، أجبرت نفسي، وفي النهاية يبدو أنني تمكنت من الصراخ، فقال أخي الصغير: ماذا بكَ يا أخي، ترى لماذا صرخت فأنا قلق بشأنكَ!

قلت: ماذا قلت، ماذا قلت يا قليوبي؟

قال: لم يكن مفهومًا يا أخي.

صباح هذا اليوم على الرغم من أن كل شيء في المنزل كان على ما يرام، الأصوات والأحاديث نفسها إلا أنه تغير شيء فجأة، وهو أنني أحببت كل شيء أكثر ونُزع فجأة الخوف المفزع والقلق من داخلي، رتبت لوازمي المبعثرة في الغرفة وكل أشيائي، وجلست عند الموقد في الساعة الثامنة إلا الربع ومازال أبي لم ينهض، فرحت أمي وأخي الصغير لنهوضي مبكرًا.

قالا: أوجدت عملًا يا بانكو؟

أجبت: لا.

- **فلماذا استيقظت مبكرًا إذًا؟**

تظاهرت بالضجر: إن أردتما أذهب لأنام مجددًا.

التفا بالقطع المتدلية من بيجامتي الرثة، وأجلسوني كرهًا، وأعطوني كوب من الشاي، وشريحة خبز محمر، وعلبه جبنة بيضاء.

قال أخي لأمي: صرخ أخي بالأمس.

أجابت أمي: أصرخ، لماذا صرخ؟

فقال أخي الصغير: لم أفهم، لكنه صرخ كثيرًا.

دخل أبي، فكم كان أبي رجلًا صالحًا، سعيدًا، خلًا، وصديقًا.

قال: أووه، استيقظت مبكرًا اليوم، وبحث في جيبه ثم قال نسيت علبتي أعلى، أحضرها سريعًا.

ذهبت ركضًا، فأحضرت من جيبي ما تبقي من السجائر الجميلة التي أعطيتها أنتَ لي.

فقال أبي: يا إلهي! من أين أتيت بهذه السجائر الرائعة؟

أجبته: أعطاها لي صديقي.

قال: ها، ستأتي معي اليوم، سأصلح سلم قبو، كهرباء المحطبة تعطلت ستصلحها.

فخرجنا معًا، فقابلتكَ في الطريق، إلى أين أنتَ ذاهب مبكرًا هكذا! نظرت باندهاش حتى ابتعدتَ فابتسمتُ أنا.

سألني أبي: لماذا تبتسم؟

أجبته: لا شيء.

في حين أنني كنت أفكر فيكَ، كنتُ مثلكَ تمامًا في الحلم

الـذي رأيتـه أمـس، لكـن هنـاك فـرق واحـد، لم تسـتطع أن تركـض وتقـول لي بعينـكَ: إلى أيـن تذهـب، خـذني!

عندمـا خرجـت مـن العمـل خطـرتَ ببـالي عندمـا ركضـت إلى المقهـى وجلسـت لألعـب الألعـاب الورقيـة فابتسـمت مجـددًا.

عـدت إلى المنـزل مبكـرًا هـذا المسـاء، حمّـرت أمـي السـمك، وتناولـت الأسـقمري[1]، وأشـترى أبي زجاجـة بـيرة، فشربـت كأسًـا، سُـلقت أمـي البطاطـس منـذ الصبـاح، فـبردت كالثلـج، فأكلتهـا أيضًـا، ورقـدت أمـام المدفـأة، وأخـذت كتـاب أخـي الصغـير، واسـتغرقت في القـراءة دون أن أفهـم، لكننـي كنت سـعيدًا وأنـتَ مـن منحتنـي هـذه السـعادة، فأحببـت كل شيء ضعفـين أو ثلاثـة وكنـتَ أنـتَ السـبب أنـتَ، لكـن مجـددًا أنـتَ أكثـر سـيئي الحـظ في الأمـر، أثـق بـكَ، وتـروق لي صداقتـكَ، وكنـت أضحـك عليـك لدرجـة أنني لم أسـتطع التوقـف، فلـم أرى الحلـم في نومـي مجـددًا ولا أمـام الموقـد ولا بعدهـا في سريـري.

بمجـرد أن اسـتيقظت صباحًـا كنـتَ بخاطـري، فابتسـمت، ونهضـت، وجئـت لأخـبركَ فـما رأيـكَ؟

***

(١) -نوع من السمك.

تمثال مليحة

كانت امرأة جميلة ذات وجه شاحب، وفي جانب عينيها الفاتحة إلى حد الاصفرار اللامعة تعبير صاحب، وصديق حميم، وكنت انظر مفتحًا عيناي إلى الوجه الذي يروق لي دائماً والسبب وراء عدم مقدرتي في فتح الموضوع الذي أريد هي نظرة المرأة المؤلمة قلت: "آه، هذه عيناي!"، كنت أظن أنني سأتحدث ببضع الكلمات القاسية لعينيّ. كنت سأقول: "أتنظرون كالمجانين لكل وجه يروق لكم!"، فالأشخاص الجميلة يثيرون شفقتي ليس تجاههم لكن على نفسي؛ حتى أنهم ينزعجون لنظراتي، أديرت مفاتيح أخرى في رأسي، فأضاءت أنوار أخرى وشعرت أنني عدت إلى الوراء، كنت أدور بسرعة فاستحضرت أمام عينيّ صورة بلدتي التي قضيت فيها جزء من شبابي.

كان أحد أصدقائي المقربين ابنًا لأحد العائلات المرموقة في القرية فدرس في مدارس أجنبية لسنوات، وتعلم اللغة، وتعلم كيف يرتدي، ويعيش، ويتحدث، وعاد الآن إلى القرية، انغلق على متجره بسوق الفحم، وفي السابق هبّت رياح الاحتلال،

حاول القفز بغيّة الإفلات من حبل مُقيّد يُدعى الأسرة، لكنه لم يستطع، سمن أخر سنتين في مكتب، واستمر في النوم، ولا أعرف أكان سيصبح حاله أفضل إن لم تكن الأشولة تأتى من هنا وتذهب هناك، ولم تعرف أسرته ماذا تفعل لتنشيط الشاب الذي أخذ يثقل يومًا بعد يوم وينغلق على نفسه ويسمن فاسودت الحياة في عينيه؟ تُرسل الأشولة إلى إسطنبول؛ وتأتي من إسطنبول- هذا كل ما أفهمه في التجارة، ولم يكن صديقي أكثر مني- كان يملأ الخزانة بالنقود، لكن الشاب نسى ما يمكنه فعله بالنقود، والأب التاجر الذي علم أن شرب ثلاثة كؤوس من الراقي في الأسبوع لا يمكنها أن توقظه من نومه العميق هل رأي ذلك في الحلم، أم أنه استشار الأطباء، أم أن كبار العائلة عقدوا جلسة خفيّة ليتشاوروا فيما بينهم؟ فماذا حدث هنا؟ مجددًا لا أعرف؛ ولأنه لا يوجد في هذه الأسرة شخص بملكه أن يهتدي إلى هذه الفكرة بمفرده، فلا يتم التفكير في هذا البيت؛ يُأكل، ويُشرب، وتُحسب المصاريف، ويُخلد إلى النوم، والفكرة التي اهتدوا إليها هي زواج الولد، تخيل أنتَ مكتب وليكن زجاجه مغبرًا والذباب قد لوّث دفاتر، وبقعة الحبر على طرف دفتر الخزانة قد مرّ عليها اثنا عشرة عامًا؛ كي يتحول زجاج المكتب السميك إلى زجاج مزخرف من الغبار، لم تُقطع أوراق النتيجة منذ سبعة أشهر

ونصف، لقد ترك كل شيء بخلاف الدفاتر الجلدية السوداء فوق خزانة هذا المكتب، وماكينة النسخ الموجودة بجوارهم، وخزانة الدفاتر التي تسقط فجأة من حين للآخر محدثة جلبة، والنقود للغفو صيفًا، وكذلك المقاعد الشاحبة في أماكن الجلوس على الكراسي، ومقعد نُسي أنه يدور حول محوره، نعم فلا شيء ولا حتى فكرة الزواج تمكنت من إيقاظ صديقي من سُباته الذي تحول إلى مقعد، وكرسي، ودفتر خزانة، فقد فكر ذات مرة فراق له التفكير، تخيل بسرعة امرأة، وحذاء، وبيجامة، ومسحوق تجميل، وعطر اللافندر فتألم قليلاً لدرجة أنه عندما فكر قائلا: "إن تزوجت فماذا سأفعل؟"، ذهب سريعًا هذا الألم، جيد أنه ذهب سريعًا، وترك مكانه للخوف، وعندما شعر بالخوف ظل يفكر ولا يخطر ببالكَ عند النظر إلى قولي أنه ظل يفكر مدى تأثير ووحشية شيء يُدعى التفكير، فقال: "إن تزوجت ماذا سأفعل؟"، وغطّ في نوم مُثبّتًا ناظريه على الزجاج الملوث، يا إلهي، كم كان هذا نومًا هنيئًا دون أحلام! أيقظته حشرة من نومه لم تكن دخلت إلى المكتب حتى وقتها، كان هذا دبورًا، استيقظ بعدما سمع ضوضاء طائرة نفاثة كبيرة داخل المكتب الصغير، وكان الدبور الذي يبحث عن ثقب للخروج كالمجنون، والأدق كأنه طائرة يقودها طيار مجنون، وبعدما أرهق عينيه الناعسة من تعقبه، فكر في إنه لا يمكنه تحريك يده دون

أن يفكر أنه أكبر مليار مرة من الدبور خاصتنا فخيمت على رأسه فكرة: "إن تزوجت ماذا سأفعل؟"، فكر ثمانية وعشرين يومًا، فلما ليس تسعة وعشرين يومًا؟ شهدت أنه فكر في هذا الأمر طوال شهر فبراير وعندما علم أنه لن يتوصل إلى حل بالتفكير عزم على تجربة ما سيفعله وكانت النتيجة سيئة جدًا، فقد علم أنه عندما يتزوج لن يتمكن من ارتداء حذائه، أوصيته بالإقلال من تناول الطعام، فعمل بنصيحتي، وبانتهاء شهرين وحرق الدهون في جسده السمين فقد اثني عشر كيلو، مجددًا لا يوجد عمل! قصد طريق أغنياء القرية شكي إلى الطبيب الذي يذهب إلى هناك فوصف إليه الطبيب (إسطنبول) للتخلص من همه، إسطنبول هي مدينة الشفاء فذهب إلى البارات، والحانات، والمطاعم، والشواطئ هناك، لا، لو كان تزوج لم يكن يستطع ارتداء حذائه، وكأن قراره بتسليم نفسه للأطباء إلى جهاز التدليك الكهربائي أحزنه قليلًا، وقد نسي آليه شيء يدعى الحزن، لكنه لم يعد قادرًا على تناول الطعام كالسابق وعندما فهم بما لا يدع مجالًا للشك إنه عندما يتزوج لن يتمكن من ارتداء حذائه، سمن مجددًا في إسطنبول، وعندما سمن كأن حزنه ملأ قرص مسدسه الدوار، وبدأ اضطراب في رأسه، وماذا يعني العمل على كبح هذا الاضطراب بالخمر، والراقي، والأرق وأنتَ تعلم فذاك بمثابة وضع البنزين بجوار

النـار، فقـد أنفـق أمـوالًا طائلـة، ولم تحـذره أسرتـه مـن أي تضحيـة قـام بهـا، يبـث همـه لـكل مـن يـأتي أمامـه، أطلعـت العاهـرات، والأصدقـاء، والأطبـاء عـلى هـم الغـلام هبـاءً!

صـادف مليحـة ذات يـوم مسـاء في أحـد البـارات، هـذه هـي مليحـة التـي رأيتهـا في الشـارع منـذ قليـل، بـث إليهـا همـه أيضًـا، ولكـن لم يغـدق عليهـا المـال، أحبـت مليحـة في نهايـة أسـبوع غلامنا بعدمـا انتقـل مـن النحافـة إلى السـمنة، ومـن السـمنة إلى النحافـة، مـن السـكون إلى النشـاط، ومـن النشـاط إلى الكسـل وتعلقـت بذلـك الوجـه الحزيـن الجميـل، وعندمـا شـكي همـه إلي مليحـة قالـت لـه: "سـأنقذكَ مـن هـذا الهـم"، وكان صديقـي وعدهـا وعقد الإيـمان أنـه إن نجـا مـن هـذا الهـم سـيتزوجها، فتبتسـم مليحـة لهـذه الوعـود، وكانـت تقـول: "لا عليـكِ عزيـزي!".

عاشـا معًـا سـنة ونصـف، وارتـدى صديقـي حذائـه بعـد عـدة شـهور، لا بـد أن يسـأل عـن مليحـة، لكنـه بعـد عـام ونصـف أصبـح شـابًا كجميـع الشـباب.

في شـهر تشريـن الثـاني مـن عـام ١٩٤٠ في أولى سـنوات الحـرب، وفي فنـدق بـارك عقـد قـران ابـن أحـد أعيـان المدينـة السـيد ج،ح عـلى ابنـة الطبيـب الجـراح ح، أو.

وتُركت مليحة التي رأيتها ولم أستطع التعرف عليها، والآن أرى كثيرًا في هذه الأيام مليحة فتاة البار التي تُركت كاللقطية بعد كل الخير الذي فعلته ومعها طفل سمين، كلما رأيتها أعلم أنها أساس سعادة بعض الأسر، وأتعجب لماذا لم ينصب صديقي تمثالًا لمليحة من البرونز أمام بيته ذي الشرفة الواسعة في حينا الذي به ثلاثة أو أربعة ملايين شخص؟

***

الحرفي يني

عندما تعرفت على الحرفي يني كان عندي خمسة عشر عامًا وحينها لم يكن بعد الحرفي يني، فكان طفلاً عيناه سوداء، وساقيه، وشعره أيضًا.

هل أنا؟ أكنت رجلًا كبيرًا، كم أود أن أكذب، كنت هزيلًا، ولم يكن لدي أحد في العالم، كان لدي أمي وحسب، ولم يكن لي أحد غير هذا الحرفي يني الذي يبلغ من العمر عشرين عامًا الآن، أشرفُت على الخمسين، ولكن يني هو صديقي الوحيد يدهن الجدار بدهانات زيتية، فيدهشنا، فمازال في عيني ذلك الولد الأسود الذي يبلغ من العمر خمسة عشر يذهب إلى السينما، والمباريات، ويلعب ألعاب الورق في المقهى عندما لا يدهن الحوائط.

وعندما يخطر بباله يأتي إلي ويجدني أينما كنت وإن لم أقرر لا يتصل أيضًا فيقول: "لماذا أتصل بكَ يا أخي؟".

لدينا حانة منعزلة، أذهب وأجلس استمر في التفكير، ماذا فعلت في هذه الدنيا؟ ماذا رأيت؟ إلى أين وصلت؟ وإلى ما آلت الأمور؟ ماذا جنيت؟

وعندما تثلج في الخارج أبرد في الحانة وإن كانت دافئة، فلا يوجد أحد حتى في الساعة السادسة، مرّ النادل إلى القاعة المقابلة ليضبط ساعة الحائط ويجبر شخصًا على الشرب، هل أنتظر الحرفي ينى؟ إن انتظرته لن يأتي، أيأتي إن لم أنتظره؟ هناك أمل، فهناك أمل عندما لا ننتظر.

أتى ومرّ من أمامي، ماذا أقول له؟ وماذا قال لي؟ فلا أتذكر ثمة شيء أتبعته؛ لأنه طلب هذا.

بالحانة زبائنُها المعتادون، وكان أحدهم أتى وجلس بجوار الزجاج وجعل النادل يفتح له زجاجه مياه معدنية، ويسكب داخلها الراقي، وجلب له طبق فاكهة، وشوى له الكلاوي، وكان يتناول بيض الأومليت أحيانًا.

أتى الحرفي ينى مقطب الحاجبين، سيعطيه والد الفتاة مهرًا خمسة آلاف ليرة[1] وكانت الفتاة جميلة كان يعرفها منذ زمن ورآها في حفلة موسيقية، هذه المرة قالت أم الفتاة: "أرقص يا ينى!".

قال ينى: "أنا لا أجيد الرقص وهذه الأمور، ولو أعرف لن أرقص"، أظهرت السيدة سخاءً بشكل واضح.

قال ينى: تحدثي مع أبي.

(١) -المهر: تعطيه العروس المسيحية إلى العريس قديما.

يعني أن الحرفي ينـي لن يأتي إلى الحانة لشرب كأسين من البيرة معي فهو يقول: "أن المرء لا بد ألا يظهر في الحانات أحيانًا"، وأتضح أن وراء هذا خمسة آلاف ليرة.

يا للأسف يا يني! قلت لك مساء أمس كنت ولدًا صغيرًا أسودًا ونحيفًا، انظر كيف أصبحت رجلاً كبيرًا! وأصبحت أنا جَدًا، فالحانة هي الحانة، والطاولات نفسها، لكن الدنيا اختلفت، فأنتَ رجلٌ آخر، لكن مازلتُ أنا كما أنا يا يني! أراكَ دائماً الحرفي ينـي ذي الشعر الأسود، والعيون السوداء ولدًا كالجن، فكنا نذهب إلى السينما معًا، فكنتَ تجن جواري، وتصفق، وتضربني على كتفي وتقول: "يا إلهي، أرأيتَ يا رجل، انظر إلى المحقق! ماذا فعل أرأيتَ؟ لقد لكمة".

لم يكن في مكانه في السينما، ولكنه كان في مرايا السينما، وفي أيام المطر كانت رائحة القماش والناس تفوح في كل مكان، وعندما كنا نختلط مع الأطفال في المقعد الأول تغمرني الفرحة، فكل الوجوه باسمة وكل الأطفال سمحة وكل الأيادي قاسية، صغيرة، ومتسخة، ودافئة.

- مرت الأيام سقطت، وانكسر كأس الشرب، وأصبحت أنتَ رجلاً كبيرًا بقدر أنكَ ستحصل على مهر من العروس خمسة آلاف ليرة، أتحب الفتاة يا يني؟

- أليست زوجة يا أخي، فنحن أيضًا نحب.

- صحيح يا يني، فالنساء تُحب، لكني أحب الأطفال أكثر من النساء؛ لأني ظللت دائماً طفلاً.

- سأل يني: ألا تحبني؟

- أنتَ؟ وهل يُسأل سؤال كهذا؟ أنتَ؟ أحبكَ كثيرًا.

- لكنني لم أعد طفلًا بعد الآن.

- أنتَ طفل في عيني.

- إن اعتبرتني طفلاً أغضب منك، واستاء، ولن أتحدث معك مجددًا.

- ألن تدعوني إلى زفافكَ يا يني؟

- سأدعوكَ.

صمتنا أنا والحرفي يني فترة، وبعدها لا أعرف ماذا دار في ذهنه فقال: "تذهب إلى المسارح أو ما شابه خذني معكَ مساء!".

- متى تريد أن تأتي معي؟

اتفقنا على مساء الإثنين، فمررت على شباك التذاكر مبكرًا، واشتريت التذاكر فذهبت وتزين الحرفي يني وأتى، ولكن من أجل تذاكر مساء الغد، لا يوجد عروض مساء الإثنين.

فقلت: يني لا يوجد عروض أيام الإثنين؛ اشتريت تذاكر لمساء غد.

أجابني: لا يوجد مشكلة؛ أعطني تذكرتي.

شرب كل منا أربعة كؤوس من البيرة، وافترقنا، وفي مساء اليوم التالي ذهبت إلى المسرح الثامنة والنصف ومازال لم يأتِ بعد، وعندما قُرع جرس انسدال الستائر أتى أحد غيره وجلس جواري.

- **باع الحرفي يني تذكرته لي، ولم يأتِ إلى المسرح.**

أنهى الحرفي يني تعامله الطفولي معي، راق لي هذا، واندهشت، لكن شعرت بوحدة على الرغم أنني دائمًا ما كنت أتابع المسرح مفردي، واستمتع، فكنت انتقي الليالي الهادئة، وصعدت إلى شرفات المسرح لن أشاهد غالبًا أسوأ من هذا العرض ذاك المساء.

وا اسفاه يا يني! ماذا حدث؟ لم تأتِ، ماذا حدث، أأنتَ الطفل الصغير الذي كان يجلس جواري في السينما ذات المرايا عندما رأيته في الشارع! لكن هناك شيء يضغط على قلبي كقبضة حديدية لا عليكَ! لا تصدق! فأنتَ روحي! لا تحزن يا يني، وابتسم بمجرد أن تراني ولا تعبأ بما حدث في المسرح هناك صداقة في الدنيا يا صديقي! ولم تمت بعد!

***

قصة لشخصين

إن لم يُسمع حديث الصياد للنورس الأعرج فهو يُرى. وأثق في أن النورس يهمهم بكلماتٍ، أولًا وإن قالوا لي أخبرنا ما قاله فلن أستطيع، لكن سأقول إن الوضع مختلف، مستحيل أن يكون الصياد هو من بدأ الحديث مع الصياد.

دعنا عما قال النورس ولنجعل الصياد يتحدث.

- **النورس:** ...

- **الصياد: هلّا تصمت أيها الأعرج الوقت مازال باكرًا، أما سئمت! مازلنا لم نصل إلى هدفنا، أقبل يدكَ اصمت! اصمت، اصمت لنصل سريعًا، أتود أن أقول لكَ كلامًا لا تحبه؟ هل أجدف؟ لا بد أن تظل جائعًا عكس ما قال سيدنا نوح ومثلما لم يوص الرسل، حسنًا، حسنًا! فليكن ما تقول، قف، انتظر، أقطع لكَ سمكة ماكريل، لا تصرخ يا بني، لا تصرخ يا عزيزي! لكن فعلت! وكذلك أصبتني بصداع يفجر رأسي يا هذا!**

ألقى طائر النورس الهيكل العظمي لسمكة الماكريل المرتعش ذيلها المنسلخ من لحم رأسها إلى ذيلها، فتعلق على الجواريف،

وبعدها قليلاً ظهرت من بين الضباب جزر هايرسيز[١] فصمت النورس وضرب بجناحيه فمر من القارب، وحلّق بجناحيه سبع مرات، فحلّق من فوق الصياد إلى سواحل جزيرة هايرسيز واختفى، ثم عاد، ووضع على بحر هادئ ولم يتحدثا بعدها.

التفت إلى الصياد: عندما أذهب، فيعرف القارب، ويتبعني فهو طائر حسن الفأل.

- **لماذا تقول له أعرج يا باربا (الخمار الهرم)؟**

- **هو أعرج بالفعل انظر إليه جيدًا، يفقد أحد ساقيه.**

- **ماذا حدث لساقه؟**

- **لا أعرف ربما أتي وحش من أعماق البحار والتهمها، أو خُلق هكذا أو أنه سقط في يد طفل، غير معروف.**

صمتنا، وجلبت الرياح رائحة البر فشممت رائحة بطيخ بدأ يفسد.

قال الصياد: انظر إلى ذلك، مثل الإنسان! وضع على الهدف تمامًا.

وقفنا حيثما حط الطائر، فذهب النورس أمامنا بخمسة ذراعًا، وحط ومد رأسه وصرخ، وبينما يخرج الصياد السكين ليقطع الطعام له، طار مجددًا، وحلّق إلى أن اختفى.

(١) -واحدة من جزر الأمراء في بحر مرمرة

قلت: هرب يا باربا (الحمار الهرم).

أجابني الصياد: سيعود الآن ويأتي، قد ذهب ليرى إن كان هناك صياد آخر في سيفري.

- حسنا، هل ضروري أن ينظر ليعلم؟

أجابني الصياد: ليس له، لكن مهما لي، ثم صمت سريعًا.

لا يحب كلانا اللغو؛ كأنه كان نادمًا على حديثنا معًا بهذا القدر، سأقول إن الصياد كما قلتَ رجل يتحدث مع نفسه، لكن هذا خطأ فالأصح أن الثرثرة في تكوين الصياد، لكنني لم أصادف صيادًا ثرثارًا، وفي النهاية توصلت إلى نتيجة، وهي إن كان المرء صيادًا لن يكون ثرثارًا، وإن كان ثرثارًا لن يكون صيادًا، لكنه يجب أن يتحدث إن لزم الأمر.

- أترى ساحل كينالي الجبلي؟

- أراه.

- فهناك أرض بيضاء بالأعلى، فوق ساحلها الجبلي، فهو أسفل الأشجار المتفرعة بالأعلى؛ أترى هناك؟

- لا.

فجدف قليلًا، وقال: والآن؟

- أرى الآن.

صمت مجددًا، وانبعث صوت عميق أصم من العالم الأزرق من أسفلنا، فالأصوات التي نعرف هي صوت الإنسان، والحيوان، والصافرات، والآلات، والخشب، والأسلاك، والشجر، والحشرات، سمعت صوتًا من العمق، من عمق أذرع تحت الماء، صوتًا مختلفًا تمامًا عن أصوات الأرض، وبدا لي أن هذا الصوت هو شهيق وزفير هذا العالم الأزرق، فسمعت جزءًا منقوصًا لمليارات الأصوات الصاخبة الصماء العميقة لصوت هذا المخلوق العظيم الذي يُدعى البحر، العملاق، مثلما يحدث مع نملة لا تسمعنا كلنا، لكن تسمع جزء من مليون منا، أصداغي تؤلمني، وأذني تطن، كنت ارتعب دائماً من الصوت الذي ليس ساكنًا وعميقًا ولا يُسمع في الفراغ، فرغبت في التحدث كنت أود أن أصرخ كي لا أسمع ذلك الصوت وجال بخاطري أن أسبح حتى جزيرة سيفري التي دنونًا منها، وأن تطأ قدماي اليابسة، وأغني التركو[1] بأعلى صوت.

ناديت قائلاً: يا باربا، قل لي بالله عليكَ، لماذا يذهب النورس لينظر إن كان هناك صياد في سيفري ثم يعود؟

(١) - مصطلح يُطلق على أغاني شعبية تركية.

رفع عينيه محمرة الجفون ونظر إلى وجهي فعلم أنني أخشى البحر، والصمت، وصوت البحر العميق غير المسموع، فرمقني قبل أن يجيب ثم ابتسم وأجابني بعدها: إن كان هناك صياد آخر يأتي ليخبرني، فأغضب ثم أذهب إلى مكان آخر، وفي ذلك اليوم ينقلب حالي رأسًا على عقب؛ فلا أعطيه سمك فلا أحد يعرف، يظنون أنني هربت كي لا أحدد هدف وليس هكذا والله فما المناسبة! الله يرزق من يشاء وبالنسبة لي سأصطاد أسماكًا هنا أو هناك أم (أحجارا)؟ فقد عرفت أعماق البحار كاسمي إن أرادوا معرفة ما في أعماق البحر ليأتوا ويسألوني فهوايتي صيد الأسماك فقط لا شيء غير صيد السمك أفهمت؟

كان الصياد يتحدث مع النورس فسأله قائلاً: من أين كنتَ ستعرف أنني استمتع فقط بصيد الأسماك؟ أجب يا هذا!

لم يعد النورس يتحدث بعد الآن كانت عيناه المدورة ذات الحلقة الحمراء التي لا تتحرق موجهة صوب قاربنا بيضاء، ونظيفة، فكان يفتح منقاره ذا لون قشر البصل ويغلقه.

- **أجبني يا أعرج! قل لي إن كان هناك صياد، وإن أتي إلى هنا فليس لكَ عمل قل لي: (أنتَ تتعصب، وتهرب، وتتحول إلى رجل آخر حتى المساء، يحدث لكَ ما يحدث)، قل لي: (لي أنتَ خنزير)، قل لي: (كأنكَ بإمكانك أن ترفع هذا المجداف وتضربني على رأسي)، قل لي: (أنتَ ترى رأس السمكة أفضل مني).**

نظر النورس، وصمت.

فقال الصياد لي: ألقي تلك الرؤوس إلى للنورس.

كيف تجرعها النورس، كان ذلك يستحق المشاهدة، فالنورس الشره كالإنسان الشره فهذا يقزز الإنسان، فأنا أفضل الناس التي تأكل خفية دون أن تصدر صوتًا، هؤلاء من يجلسون تحت شجرة، ويفتحون الغلاف، ولا تعرف ماذا يأكلون ربما يتمطقون، أو ربما يأكلون بشهية، لكن إن مر أحد بجوارهم يخجلون كمن قُبض متلبسًا.

قال الصياد: طماع جدًا، لا أحب هذه الخصلة، لكن هذا هو النورس فالنورس كائن لا يعرف الشبع.

فقلت: مثله مثل الإنسان.

قال: لا، لا تظلم الإنسان، فالناس مختلفين، فمنهم القنوع.

- **لكن قليل.**

- **بل كثير.**

وأشار إلى مرتفعات (أولو داغ) التي لم يذب جليدها وقال: "في هذه الأرجاء".

ألقينا الصنارة ظل الصياد يتحدث دون توقف الآن كأنه رأى مشهد أن الإنسان إن كان ثرثارًا فليس صيادًا.

قال: رأيت قرويين كثيرًا يخجلون من تناول الطعام، فيتناولون الطعام كأنه عيبًا، ورأيت أيضًا بعدها سادة يأكلون أسرع من النورس بلطف دون أن يفتحوا أفواه جراد البحر يأكلون بقدر أدبهم محركين فكوكهم دون أن يتمطقوا، لكن إن انتبهت قليلاً لذاك الفك ترتعب فكم هذا مرعب ليس فكًّا، بل آلة، ليس آلة، بل مطحنة.

حام النورس الأعرج حولنا.

قلت: باربا لا بد وأن له قوارب رفقاء آخرين؟

- **بالكاد.**

- **لا بد وأن جميعهم يعلمون خصلته هذه.**

- **وهل لهم ألا يعلمون؟**

- **كل هذه السياسة لنورس ...**

فتح الصياد فمه ذي الأسنان النخرة حتى رأيت لسانه.

قال: حنجرة، حلق.

صمتنا مجددًا وتفقد صنارته وهمت أنا مجددًا في التفكير حابسًا الأنفاس نحو الأعماق؛ حيث أُلقت الصنارة بسرعة ثم أصبحت عرجاء معي، فكنت أفكر قائلاً داخلي: ليتني

أنجو من موج هذا المخلوق الأزرق، لأتنفس على البر وأمت، وليتمتع الصياد بالحديث وانتظار السمك كما يحلو له، فبدأ يثرثر بغير رغبة تظهر أنه لا يفكر في نفسه فقط، ولم ينساني: "المياه سيئة اليوم، وأنتَ أيضا سيء في البحر، سنعود بعد قليل، فلا تحزن".

أصبح صمته والتقاطه من جانب آخر واحدًا غريب، اعتدت هذا الأعرج فأنا أفتقده في الأيام التي لا أراه حولي فأتحول إلى شخص لا يعرف ما حدث له، ويبحث عنه دون توقف ولا يمكنني التعود على الإنسان، لكنني اعتدت طائر البحر هذا فلو كنت اعتدت البشر لتزوجت، فلا يمكنني أن أعتادهم قضاء ليلة كاملة مع إنسان في البيت نفسه، والسرير نفسه يزعجني.

فكرت في غرفة الصياد، فلا يجلس هناك ويضع شباكه، وينام أغلب الوقت في المقهى أو القارب.

- ألا يروق لكَ البيت يا باربا ياكاموز؟!

- أبدًا، أبدًا، لا أحب المنزل ماتت أمي عندما كنت في القماط ولم يكن يمكث أبي في المنزل فما كنت أخرج من البحر صيفًا وكنت انتظره عودته من الصيد مساءً، فتقوم على الفور في مهجع القارب، ويذهب هو متذمرًا ليرقد فوق شبكة الصيد

الموجـودة في منزلنـا الصغـير، ويـأتي مبكـرًا ليوقظنـي، فـإن لم يغضـب مـن الحلـم الـذي رأه بالأمـس ينشـغل بالأسـماك وإن غضـب قليـلاً يهمـس، قائـلا: "هيـا اذهـب أنـتَ وألعـب في السـوق"، فابتعـد حزينًـا.

***

- للسمك يا باربا ياكاموز؟

- للسمك، ماذا سيحدث؟!

- خذني معكَ.

لم يجـب ولم ينظـر في وجهـي، فـإن تـم التفكـير في كـون العطيـة التـي أعطيتـه إياهـا دون أن يصطـاد السـمك لا شيء ليُلقـى للمـكان المهجـور هـذا، وأن لباربـا ياكامـوز احتياجـات في هـذه الدنيـا فهـو معـذور في اصطحـابي مجـددًا إلى السـمك.

قال: لكن إن مت في القارب فلن تعود.

- كنت متعبًا قليلًا ذلك اليوم.

- وسـتكون متعبًـا مجـددًا، لا عليـكَ سـتخرج عـلى البـر بهـذا الضيـق ذات يـوم ولـن ترتـاح افـرض أن شيء لم يكـن، لكـن إن مـت فـماذا سـيحدث؟ إن جـاء أجلـكَ فـلا مهـرب سـواء كنـتَ في البـر أو البحـر.

- لماذا يأتي للمرء شعور بالخشية من الموت في البحر؟

- ليس خوفًا من الموت، ذلك خشية العقل.

- وماذا يعني هذا يا باربا؟

- الرأس في البحر مختلفة، والأمور تختلف عن التي في البر، فإن مددت يد الغوث في البر فهذا بين يديكَ، لكن داخل قارب فأنتَ بين يدي العجز إن مرضتَ فلا طبيب يداوي، وإن متَ فلا قس ولا إمام - كأن هذا سيفيدكَ حينها- إن عميتَ فما ممسك بيدكَ، وإن جننتَ فلا يوجد مورفين والأفضل أن تشرب زجاجة راقي، قف! بني رجب، اشترِ لنا مئة وتسعين من هذا.

قفزت من القارب، ونظرت؛ فإذ بمنديل مأتم أسود حول ياقة باربا ياكاموز.

- من مات باربا؟

- قريب لي من بعيد.

هذه المرة لم نتحدث في القارب وعندما وصلنا إلى علامتنا.

فقلت: أترى طرف برج الفتاة؟

- نعم أراه.

- **أرأيتَ ترابه الأحمر.**

- **نعم رأيتها.**

- **هناك على الشاطئ منزل أبيض أفوق تلك الصخور تمامًا؟**

- **فوقها.**

أجابني ثم وضع القريدس في طرف صنارته وألقاها في البحر فتذكرت النوس.

قلت: أين النورس الأعرج؟

- **مات.**

- **متى؟ كيف؟**

- **لا أعرف كيف، لكن وصلت إلى علامتي صباحًا، فوجدته يسبح ميتًا فوقها.**

- **يعني أنه أتي ومات فوق العلامة ليراكَ؟**

لم يجب فخطر ببالي فجأة أن علامة المأتم التي وضعها في ياقته من أجل النورس الأعرج فابتسمت.

فسألني: لِمَ تبتسم؟

- **لا شيء، أم أن النورس الأعرج هو قريبكَ البعيد؟**

رمقني وقال: اليوم تفكر كما لو كنتَ على البر، لا خوف! وهذا هو الصواب لا بد هذا، لا بد أن تفكر العقول في البر كما تفكر في البحر، فلا يوجد أي حل لأي شيء في البر أيضًا حلولنا ليست بأيدينا كذب وهراء! فالدنيا دنيا عجز.

- مستحيل هذا يا ياكاموز فالدنيا بها حلول والناس سيجدون حلولًا للدنيا.

- هيهات من يحيا يا ولدي! في البر يتم التفكير هكذا، ولابد أن يتم التفكير هكذا في البحر أيضًا خطأ، لكن ليكن دائماً، فلابد أن نفكر هكذا.

كنت سأقول شيئًا، رفع يده وبها سيجارة، وأشار لي بيده لأصمت فصمت وسحب صنارته، وكان ما أصطاده خمسة أو ستة كيلو من سمك الطرخان، كنت أظن أنه اصطاد عشر كيلوات منه، ضرب مجرفته، وألقى بالسمك إلى ذيل القارب وطيب الطعام ونظر إليَّ كأنه يقول لي تحدث لنرى.

قلت: يا إلهي، ماذا أقول؟ أم أنكَ تقيم حدادا لمآتم النورس الأعرج؟

أشار إلى رأسه أولا ثم قال: ما تدعوه رأس يبلى، ويهرم، ويموت قبل أن يموت الإنسان.

أشار بعدها إلى قلبه وقال: هنا ما لا يبلى ولا ينقص.

صمت الرجل الكبير، رجل كالبارود رجل لا أحد يحبه في القرية ولا يستلطفه قال: عندما وجدت جثته هنا بكيت، ومرضتَ أنتَ عندما جئنا للصيد المرة الماضية، وأنا أيضًا عدت دون أن اصطاد، فكنت اتعذب، وذهبت إلى المنزل، ونمت، ثم استيقظت وفمي مُرٌّ كالسُمِّ، قلبت في الخزانات، كأني أبحث عن دواء، فوجدت هذا المنديل ووضعته.

انتزع المنديل بأصابعه التي تشبه الصنارة، وألقاه في البحر.

وقال: وهذا نوع أخر من جنوننا، أيفعل البحر بنا هكذا أم ماذا؟ افتح هذه الزجاجة.

صببنا الراقي في الكأس، وسقطت من عينه دمعة في المياه اللامعة ذات الرائحة الحادة، فضرب على صدره، وقال: هذا القلب قلبي، قلب المجانين.

***

رضا مليونير

لم يأت إلى إسطنبول منذ عام ألف وتسعمائة وسبعة وثلاثين من سبعة وثلاثين إلى سبعة وأربعين فتلك عشرة كاملة، وإلى ثمانية أربعين أحد عشر، إلى تعسة وأربعين اثني عشر، وأربع سنوات حتى ثلاثة وخمسين يعني ستة عشر عامًا.

كان آخر فبراير من عام سبعة وثلاثين؛ ولأنه صادف هذه المرة شهر مارس، فكان يوم بقدر ستة عشر عامًا وشهر، وكأن السنين مرت من محطات لا تتوقف!

اندهش عندما نزل من القطار، وندم كثيرًا، ماذا يعني تركه لحذائه والرده المعتدلة التي تفوح برائحة المرحاض؟ كم أنه اشتاق إلى الوجه الوردي لزوجه المسكينة، وقف ابنه الجميل الذي يصفعه عدة مرات، ورموش ابنته! أيشتاق المرء لمذياعه، إلى مؤشره الأخضر الملطخ؛ أيشتاق إلى المدن الكافرة المخططة بخطوط حمراء، وخضراء وصفراء، أو إلى أماكنها المضاءة بمليء اسمائها؟ سحقًا! يشتاق المرء إن كان لديه شعور، يحمل بركات أمتعة وسلامات فنادق سركجي من جميع أحياء

الأناضول، فقد رُسم خطان حيان، خاصان على مرآة مقهى كل فندق خاصان بالسيد حجي مصطفى، وزياتجي، والطبيب البيطري فؤاد، وكانجال أوغلو، وصهر السيد إدريس، وفك ابن الملتحي وإلا كان سيصبح غريبًا أكثر، على كل، إن كان ارتقى الفن قليلاً، وحلّق بالإنسان إلى السماوات في إبرة كهذه وتركه على سطح المنزل كان ليبتعد سريعًا من هناك فتساءل: "إن نزلت على سطح المنزل فماذا سأفعل؟ أيجب أن أدلي حبلاً من داخل المدخنة لأنزل؟ أم ينبغي عليَّ أن أصرخ وأنادي من السطح؟ المناداة والصراخ عيب، وكذلك إيقاظ الأطفال أيضًا، لكن في هذا الوقت هم بجانب المذياع، من يغلظ القول وفي أي منزل في هذه الساعة؟".

لماذا ينزل على سطح المنزل؟ غباء، وبله! فبما أنه جاء إلى الحديقة بإبرة غُرست في لحمه السميك بفضل العلم الذي وصل إلى هنا، فبإمكانه المجيء إلى باب البيت، وإن طال مفعولها يمكنه تجول حي كهذا بأكمله، أليس كذلك يا عزيزتي؟

كم تعجب أهل المنزل، كانت ستقول زوجته بسفه وجهل: كيف حدث أمر كهذا يا سيد رضا؟

وصلت إلى الصيدلية.

وقلت للصيدلي: أيها الصيدلي أعطني من إبر السفر تلك.

فقال لي: مستحيل، لا بد من وصفة طبيب.

فقلت: لا تفعل، لا تقم بهذا، لا تصنع بي هذا، هل هذا لنا أيضًا أيها الصيدلي.

فقال الصيدلي: أحصل عليها من الطبيب، فلما أعطيكَ النقود، لن أعطيكَ يا سيد لن أعطيكَ ألديكَ مرض في القلب؟ أضغطكَ مرتفع؟ أمصاب بالسرطان؟ أم أن لديكَ جرح في رئتيكَ لم يلتأم؟

فقلت: بشروا ولا تنفروا يا هذا، أقسم أنه ليس بي أي شيء ظاهر أيها الصيدلي، والله لا يوجد بي شيء، فأنا مثل الحديد، فليس لدي ولا ضغط ولا باسور، أين يمكنني العثور على الطبيب في هذا الوقت؟ سأعطيكَ النقود التي يحصل عليها الطبيب، ولكن أعطني من تلك الإبر.

ابتسم وفكر، فابتسم مجددًا، فمهما تقدم العلم يا زوجتي سيظل الإنسان حبيس زمنه، وافق وقال: "ادفع لنرى"، كانت أجرته في بادئ الأمر خمسة وعشرين ليرة، واتضح أنه مع تقدم العلوم تزداد أجور الأطباء في ولاية إسطنبول.

انتفض السيد رضا، ولكنه كان يفعل أيضًا! إن لم تكن رأسه وهو في المنزل بملكها أن تنشغل بالمستحيل هكذا، ولكن لما لا؟

حدث السيد رضا نفسه: بفضل العلم كل ما أحلم به أصبح ممكنًا، لكن دعنا نترك الحديث عن هذا، على كل فهو خيال، الحاضر، والحال هو خيال!

صاح بائع الصحف الذي دخل من باب المقهى قائلاً: "قتلوا المشير تيتو في لندن!".

فقال: "أعطني تلك الجريدة لنرى"، وأعطاه عشرة قروشًا، وعندما أعاد له البائع خمسة قروشًا تظاهر بالفرح وقال: "هذه الجريدة رخيصة يا سيد، لا تأتي إلينا هذه الجرائد، يرسلون لنا جرائد بخمسة عشر قرشًا، انظر لأهل إسطنبول هؤلاء، يقرؤون جرائد بخمسة قروشٍ، ويقرؤوننا بخمسة عشر.

البصل، كم طن من البصل لديه؟ البطاطس، الثوم، الشوفان، الشعير، والذرة؟ ضع عليها عشرات القروش، وحسب حسبته، حرب اندلعت، وقد كان مليونيرًا في الأساس كانت هذه هي بغية السيد رضا فقد ترك له أبوه السيد حافظ صايم منزلاً، وبدالاً، وحقلاً، فأثبت نفسه جيدًا في المنزل، والبدال، أعطى الحقل إلى شريك اشتراه وباعه، يمر عليه ويذهب.

كان الحقل الذي تبلغ مساحته ثلاثمائة دونم[1] على حافة المياه والذرة في الحقول المطلة على المياه تنمو حد السماء والله

(١) -وحدة قياس للمساحات تساوي ألف متر مربع.

أعلم، وعندما يتجول المرء داخل الذرة، يصاب بدوار من رائحة الأهداب فتذكر ضوء القمر في حقل الذرة، ويا له من ضوء قمر هذا! كم يساوي بالنقود القمر في البحر! كيف يكون اليوم الذي يخدع فيه الليل المقمر ويؤتى به داخل حقل الذرة غربت شمس المساء داخل الذرة بهيبتها.

قطع بطيخة وأكلها وعندما كان يمر بجوار الحقل رأى سروال ابنة الغجري، وبعدها في يوم ما دفعوا ألف ليرة مقابل دونم من الحقل لأجل مصنع سكر الذي سيكون فأل حسن، وثلاثة مائة ألف ليرة مقابل ثلاثة مائة دونم، كان سيجن ذلك المساء نسج أحلام واهية فوضع النقود فوق بعضها، ولم يعرف للنوم طعماً، ها هي فتاة بوسنية ذات شعر أشقر، وعيون زرقاء؛ وأخرى سيزرية غجرية سمراء، بنظرات إعجاب، ورائحة الورد، وشركسية بخصر ممشوق، وجورجية بعين كاللوز وبشرة بيضاء، وقد اشترى سيارة بحصان أسود، وبنى بيتًا على هضبة، الخوخ، فقد زرع أشجار الخوخ، ولكنه لم يرتاح فقد عانى الأمرين ليصل إلى خمسمائة ألف، فأصبح أكثر شُحًا مما كان عليه، ليته كان يستطيع كسب المليون الآن المليون، فما هذه الكلمة يا صاح فما هي؟ م...ل...يون!

تنظر لقوله المليون سريعًا، وتنخدع بفم الطفل يا صديقي، المليون هي عين أمه (مليون ير): رجل المليون، امرؤ المليون، أما كان ليكسب ستين ألف ليرة من البيانجو الآن، ليته بإمكانه تغيير اسم والده، فما اسم والده ترى؟! (كاراجوز أوغلو) أنفق ثلاثة مئة ليرة ليسمي نفسه رضا المليونير (رضا المليونير)، علق لوحة على باب دكانه، لكن إن قالوا له أحسب نقودكَ فأنتَ لست مليونيرًا يرتعد قلبه.

إن قامت الحرب سيكون الوضع على ما يرام، كان سيشير حينها إلى المستهزئين، عشرة قروش كثير مقابل كيلو، ثمانية قروش تكفي، فقد كان مليونيرًا.

نظر إلى صورة تيتو، أيكون رجلاً، نعم هو رجل، والصحيح إن تلك الحرب نشبت بسبب هذه الحادثة، ألم تنشب أول حرب عالمية بسبب قتل ولي عهد النمسا؟ ألم تندلع من صربيا؟

همس صوت في أذن رضا قائلاً: "أخذوا ابنه مع الجنود"، وآخر: " الآن القنبلة لن تبقي ولا المليون، ولا شجاعًا، ولا منزلاً، ولا حتى قصر السيد رضا فوق الهضبة!".

غير مكانه ذهب إلى النافذة وجلس أمامها وشاهد القطار، إن قفز فوق القطار الخاوي، وذهب إلى باي أوغلو، وتجول فلن يكون سيئًا، دون أن يقرر أيذهب أم لا أضاف خمسة قروشٍ على

ثمن كيلو البطاطس، ومع احتمال اندلاع الحرب في رأسه وتلك الزيادات التي يضيفها هنا وهناك أصبح لديه ميلون ليرة، لتندلع الحرب أو لا؟ إن اندلعت سيصبح مليونيرًا، ولكن ماذا إن أصبح له ولد ذكر؟ لم يكن له ولد أسمر يشبهه تمامًا، حتى إن لم يذهب إلى البيت المدهون بالطلاء في الجبل، لكن المنزل ذو السياج والرائحة الكريهة بالقرية والمدفأة الحديدية الذي يحتوي على أريكة، وحديقته بها شجرة برقوق انهدم، وماتت زوجته، بعدما بقي في دوامة المليون ولم يعد للنقود قيمة، ولم يعد لأي شيء قيمة، فظن فجأة أن عمره كله ذهب سدى، ففطن سريعًا أن تقديره، وغناه، وصحته، والمذياع، والمنزل الموجود في الجبل يتوقف على المال.

لم يعد هناك قيمة فلم يعد لأي شيء قيمة، ولم يعد له هو أيضًا قيمة، أكان البيع بالاسم عملاً؟ أكان تجميد النقود بالاسم عملاً؟ أكان بيعه لحقل لا تفيض به الماء إلا قليل، ولا يساوي وقتها ثلاثة مئة قروش بثلاثة مئة ألف، وتغير سلامه وصباحه واحترامه وتقديره في الشارع، وفي الحي فجأة عمل؟ أكان كل هذا عمل يا هذا؟! وطأ الحزن بداخله فجأة فنزل إلى الشارع مجددًا.

نعم فقد كان عمل! كان عمل! أيمكن للجميع أن يفعل هذا؟ لم يكن ينبغي أن يهتم بحظه، ينبغي أن يكون الله واحدًا

عنـد الإنسـان، لكـن لمـا الله يختـار ويختـار لمـاذا يختـار واحـدًا مثلـه لكـي يكـون محظوظًـا؟ فذلـك غـير معلـوم، فـلا يُسـأل الله عـن حكمتـه، لـن يسـتوعبها العقـل، وحينهـا يأثـم الإنسـان فيجـب ألا يفكـر المـرء كثـيرًا لكيـلا يأثـم ويجـب أن يُقِـرّ أن الله لا يُسـأل عـن حكمتـه! فيصبـح دينـه كامـلاً، فالمتديـن يجـب ألا يفكـر بعمـق، ولا يشـك! يجـب أن يقـول هـو كذلـك كُتـب في اللـوح، ولا يجـب أن يسـأل عـن الحكمـة في هـذا ومـن يسـأل يأثـم فمـن أراد أن يأثـم فليسـأل، عـلى الأقـل لا يسـأل المحظوظـين مثلـه!

- **بنـي أيهـا النادل! ابنـي! أتشـتري لي جبن أصفـر وقطعة خبز؟**
- **حسنا يا عمي لأشتري لكَ.**

لا يفكـر، ينظـر إلى عربـات القطـار، أيجـوز ألا نفكـر؟ رأسـه كالسـاعة فيفكـر الآن في زوجتـه، يبـدو أنهـا نائمـة وتغـط في النوم، لم تكـن تفكـر ولا تحلـم، كانـت تصـارع دائـماً لتلقـي بإحـدى قدميهـا فـوق السـيد رضـا، ولكـن عندمـا لا يكـون موجـودًا، لا بـد وأن قدمهـا تسـقط سريعًـا عـلى الوسـادة البـاردة، فقـد كانـت السـيدة حسـنية قلقـة في نومهـا، ولم تكـن ترتـاح دون وضـع قدمهـا عـلى فخـذ زوجهـا، نظـر هائـماً داخـل المقهـى، فلـم يعـد هنـاك أحـد ورحـل المتجهـون إلى بـاي أوغلـو، وانسـحب الباقـون إلى غرفهـم، فقـال سريعًـا بصـوتٍ مرتفـع: اسـحبي قدمـكِ هـذه يـا امـرأة.

- **احضرت لكَ يا سيدي ما تريد.**
- **قل له يحضر لي الشاي يا بني.**
- **أغلق موقده وذهب سيدي إن أردت أعد لكَ القهوة؟**
- **اه... لن يكون جيدًا، لكن احضرها لنرى!**

نزل هو ووالده قبل ستة عشر عامًا، لكن لم يكن في هذا الفندق في الفندق المجاور له، وأخذه والده إلى الطبيب في اليوم التالي، فأجرى له الأشعة، وعندما رأى الطبيب الأشعة في اليوم التالي، أخذ ينظر له بشك فقال لنجري أشعة أخرى، فهذا غير صحيح، فجعلهما يجريان أشعة أخرى، نظر الطبيب إلى الأشعتين، فاحتار، وقال: هذا غريب، مشيرًا لأبيه إلى سواد بحجم المقمع موجود في الأشعة وسأله عدة أسئلة.

- **كيف حال النوم معكَ؟**
- **أتتعرق ليلًا؟**
- **أُتصاب بالدوار عندما تكون في منتصف الغرفة؟**
- **أتستطيع النوم في الضوء؟**
- **أينتابكَ هذا كثيرًا في الغرف المظلمة؟**
- **أتكثر من شرب المياه ليلًا؟**

- **أتكثر من تناول الطعام؟**
- **أتشرب الخمر؟**
- **أيحدث لكَ هذا عندما تشرب الخمر؟**
- **كيف تستيقظ صباحًا عندما تجد نفسكَ على الأريكة؟**
- **هل أنتَ أعزب؟**
- **أما يحدث لكَ هذه عندما تأتي زوجتكَ -تفهمني- أو أي شيء أخر؟**

قال له أبوه أثناء عودتهم في القطار إلى القرية: " لا يوجد بكَ شيء! عندما تتزوج لن يكون بكَ شيء وسيذهب عنكَ هذا"، بقعة سوداء بحجم المقمع، أتوب إلى الله! كل هذه ذنوب! أيتخيل المرء ما يوجد برأسه؟ كل هذه خدع! كلها فخ النقود! عندما كنتَ في الخدمة العسكرية أبلغني طبيب الوحدة، كنت تذهب وتجلس فوق سرير شخص آخر وتتحدث منتصف الليل، فأي بله هذا! أما كان لديكَ علم بهذا؟ أكان هذا مرض السير أثناء النوم؟ أيحدث مرض كهذا؟ عندما تكون زوجتكَ جوارك امرأة نائمة بعين كتلك أيظل هناك مرض كهذا عند المرء وأنتَ أيضًا لا عليكَ يا رضا، استمتع! ولا تغضب لكل شيء فكل هؤلاء الرجال مخدوعين بالمال! لا تكترث! لكن

لا تشرب كثيرا، فتتعب، ولنشمر عن السواعد، ولنجد لكَ زوجة تنام بعين واحدة.

لكنه لم يجد نفسه وسط الغرفة ليلاً منذ خمسة عشر عامًا، وهذا يعني أنه لم يكن لديه مرض ولا غيره، فلمَ ترسله زوجته إلى إسطنبول وتتمسك به قائلة: سآتي معكَ، فبكي هذه المرة كالطفل، وأحاط به خوف محفوف بالشك، ليته أحضر زوجته هذه المرة، لم يحضرها أذهب إلى مكان؟ أما كان يجب أن يذهب إلى باي أوغلو هذا المساء؟ لكنه لم يكن يرغب.

عندما خرج السيد رضا من المقهى التي انطفأت أضوائها ببطء، وجد أن النقود نقود، ليزيد سعر البطاطس عشرة قروش، وإن كانت ستندلع حرب لتندلع، إن كانت ستندلع فلتندلع، فالنقود مقابل الحرب، فلابد أن يشتري القليل من الذهب من الصرافة، وليحول النقود إلى ممتلكات، وليعود إلى حيه على الفور، نام عندما قرر العودة صباح الغد.

كُتبت الحادثة في صحف مساء اليوم التالي: "مات السيد رضا المليونير أحد التجار بعدما نُقل إلى المشفى في غيبوبته بعد أن سقط من غرفته بالطابق الثالث بفندق شيرين مانياس، وبدأت الشرطة التحقيقات".

وظهرت المعلومات الكاملة في الصحف بعد عدة أيام: " تم التوصل إلى حل الأسرار وراء واقعة السقوط من النافذة والموت التي أُخبرنا بها، والتي حدثت في فندق شيرين مانياس بسركجي، وتم التوصل إلى أن السيد رضا التاجد مبتلى بمرض (السير نائماً) فسقط من النافذة نتيجة لأزمة أتته ليلاً، وتم تسليم الجثة التي نُقلت إلى المشرحة للأسرة".

***

بيت اللبلاب

سألني: أي منزل هذا، أي منزل؟

أعلم أنني فكرت، ترى لماذا سألني مرتين قبل أن أجيب، لكن لم أجد وقتًا للإجابة.

قلت هذه المرة: منزل جان فرماز.

والمنزل كان كوخًا، أو عريشًا، أو ركام حجري فلا يشبه المنزل، فهو كان يشبه الكهف، فما كان يوجد في هذه القرية من يعرف (جان فرماز).

على الرغم أنه قال لي بمجرد أن تقول منزل اللبلاب، سيدلك الجميع، فهو أجمل منازل القرية.

وقلت أنا: جان فرماز هو أشهر رجال القرية.

فقال: بالطبع! بالطبع! أمشهور بالكلام فقط؟

- عندليب القرية، الوحيد في القرية من يشبه الإنسان الوحيد في القرية.

- الوحيد؟

- **شيء وحيد فيه.**

- **وما هو؟**

- **افتخاره ب..**

- **مصدر فخر.**

- **بالضبط، بحد ذاته.**

فضحكنا معًا، ومازال الرجل ينظر إلي بتعجب، فقد كان مندهشًا، هز رأسه فجأة وابتسم حتى نادى على أحدهم من بعيد يمر وفي يده صفيحة طلاء: "صبري! صبري!".

- **قل يا سيد ميخال.**

- **تعال يا هذا، تعال.**

- **أنا مشغول.**

- **تعال بالله عليك! نبحث عن منزل جان فرماز يُقال إنه منزل محاط باللبلاب.**

التف الدهان وأتى نحونا، بينما كان يقترب ظل الرجل يبحث بعينيه في وجهي يغمض عينيه ويفتحها، يغمضها مجددًا ويفتحها وكان هناك ملامح للسعادة في وجهه المتجعد، وفي فمه ذي الأسنان التي تشبه المجرفة، وشاربه الخفيف المتسخ.

أصبح الدهان بجوارنا الآن، وكان الدهان طفلاً كبيرًا، وكان وجهه نضرًا، جميلاً، صحيحًا، اقترب منّا بابتسامة تضع على خدوده السمينة غمازات، وسَلّم علينا.

وسألني: أتبحث عن منزل جان فرماز؟

- **نعم أبحثُ عنه.**

قال السيد ميخال ضاحكًا: أتعرفه إذا؟

أجاب الدهان: أعرفه، أنا ذاهب أيضًا إلى هناك الآن.

قال السيد ميخال ساخرًا: " أكذلك؟ يا إلهي! كنس شاربه كأنه أصابه الغبار، وهزّ حاجبيه بأصابعه بالشكل نفسه، وقال: "اصطحب معكَ السيد إذًا".

وعندما التف وذهب، بدا لي في تجاعيد قفاه كأن هناك سيد ميخال أخر يكبره في العمر أمرد كأن هناك توأم أمرد له يبتسم.

سرت أنا والطفل الدهان معًا أحاطت بنا رائحة العرق الذي تصبب من جسده السمين، وكلما سرنا ازدادت حرارة الشمس سرنا حوالي أربعين خطوة، وفجأة وجدت السيد ميخال جواري.

وددت أن اسأله: "أعدتَ؟" لكن تراجعت وسرنا عشرة دقائق في طريق دون أشجار ولا ظلال ودون أن نتحدث، وعندما

خفتت رائحة عرق الدهان السمين انبعثت هذه المرة رائحة غرفة مغلقة، أو منديل قديم به سعال لم يُغسل فانطلقت كأنني سأصل إلى الظل بعد عشرين خطوة، والتفت لوهلة ونظرت خلفي فوجدت الدهان والسيد ميخال أبطآ، يتهامسان، فبدا لي أنهما يتحدثان عني، فأبطأت أنا أيضًا على أملٍ أن أفهم موضوع الحديث ونظرت، فوجدتهما يقفان تحت الشمس مباشرة و يتبقى على ظل شجرة الكستناء الممدود عشرة خطوات أو تزيد، فنادَيَاني بينما كنت أفكر مترددًا، ترى أأذهب للظل، أم انتظرهما، أم أقَف مكاني لأتنصت؟

قلت: تعالا، لنتحدث في هذا الظل يا عزيزي.

قالا: لا، لا تعالى أنتَ إلى هنا! فذهبت إليهما، وأصبحت التفت للأول وللآخر بعد أن انهالا عليَّ بالأسئلة دون أن أجيب، شاعرًا بضيق بين رائحة عرق شديد ورائحة بسطرمة متعفنة في فم الآخر.

- **من أين تعرف جان فرماز؟**

- **هل ستستأجر غرفة؟**

فقلت: ألديه منزل؟ فكيف لي أن أرى من قبل؟ أليس لدي عقل؟ كيف هذا؟ ما اسم جان فرماز الحقيقي، هل لي أن أعرف؟

لم ينصتا لما لزم أن أجيبه، أو الأصح لما استطعت أن أجيب به.

فقالا: موجود، اذهب يا صديقي!

لا يوجد في هذه القرية من يُدعى جان فرماز، وإن كان فليس له منزل، وإن كان لديه فلا يوجد غرفة ليؤجرها، وإن كان لديه فلا يمكن المكوث مع رجل كهذا، وإن مكثت معه فهذا لا يُحتمل، وإن تحملت فهما لا يعرفان منزل جان فارماز؛ وإن عرفا فلن يدلاني.

تحدثا فيما بينهما باليونانية وقالا لي مجددًا: "موجود اذهب يا صديقي، موجود اذهب إليه".

اتجها إلى طريق ضيق به ظلال كالجنة لم ألحظه في أثناء حديثنا واختفيا ضاحكين، وظللت اسمع صوتهما دون أن أراهما لمدة طويلة فاندهشت أعرف جان فرماز منذ سنواتٍ طويلة، فهو رجل مسكين، فما شغلني اسمه لأسأل عنه، فهو يمكث في هذه القرية، وإن نظرنا إليه سنجده لديه منزل بثلاثة غرف ورثه عن أبيه يجلس في إحدى الغرف، ويستأجر الباقون في الصيف، كالمودع، أعزب، فقلت: ليحتفظ هو بواحدة، وأنا بالباقين.

وصلت في النهاية إلى شجرة الكستناء وانتهيت؛ فجلست على حجر وكان يتجول حولي ديك وبضعة دجاجات، فيبدو

أنـه لا يوجـد أحـد غـيري، لا يوجـد إنسـان في الطريـق، غالبًـا كُلٌّ يأخـذ قيلولتـه فاسـتغرقت في النـوم، وبعدهـا بقليـل ظهـر شـيخ يحمـل عـلى ظهـره ثقـلاً، فجلـس عـلى الحجـر الـذي جلسـت عليـه فجعلنـي أمسـك عنـه الثقـل وأنزلنـاه معًـا، وألقـاه عـلى المـكان الخـالي مـن الحجـر، وأشـعل سـيجارة اللعنـة! فلـم اتشـجع لأسـأله، ولكـن كان يلـزم فبـدأت الحديـث مـن بعيـد: "هـل أنـت مـن هـذه القريـة يـا صديقـي؟".

- **لسـنا مـن هـذه القريـة، لكـن نعـد منهـا أعمـل حمّـالًا هنـا منـذ عشريـن عامًـا.**

- **إذًا تعد من هنا.**

- **هناك من يعتبرنا، وهناك من لا يعتبرنا.**

لكـن جئـت إلى القريـة! ألـن أصـادف أحـد في القريـة يعطينـي جوابًـا مثقفًـا كهـذا؟

فقلت: قريتكَ جميلة، لكن.

- **هـذا مرتبـط باليـوم فـإن كان لديـكَ سـيجارة ومـال فهـو يـوم جميـل، وموقـد يشـتعل، وحسـاء يُطهـى، وحمـل تحملـه، ولديكَ مـال، ومبتهـج.**

- **صحيح فكل شيء مرتبط بشرط هنا.**

- **وهناك من يعيشون دون شرط أو قيد.**

- **هناك لكن...**

قلت: هناك موت يا صديقي، الموت سيموت صاحب ذاك المنزل وذاك الديك أيضًا.

ضرب على صدره وقال: فصاحب ذاك المنزل هو أنا، ونظر إلى وجهي وقال: وأنتَ أيضًا.

قلت: صحيح، هذا صحيح، ولكن مجددًا هناك فرق.

- **في ماذا؟ أمن ميت لآخر؟**

اندهشت وقلت: كذلك.

فقال: لا، لا يوجد فرق بين ميتٍ وآخر؛ ولكن الفرق بين حي وآخر.

فكرت وكان محقًا فقلت لنفسي: "يا للعجب!" نظر إلى وجهي كأنه سمعني فقال: نعم!

قلت: كنت أريد أن أقول هذا، هناك فرق بين حي وآخر.

- **نعم هناك، فهو هكذا!**

رأينا ظل رجلٍ سمينٍ ببيجامةٍ حريرٍ أنفه كبير من شرفة منزل بالجوار نظر إلينا هذا الخيال شزرًا، وأغلق باب الشرفة المفتوح بحرس.

قال الحمّال: أوقظنا السيد من نومه، يظن أنه سيعمر أكثر مني لأنه ينام القيلولة.

- **ألن يعيش؟**

فأجابني: لن يعيش فيبدو أنه في الخمسين وأنا في الخامس والسبعين وعزرائيل جواره من الآن.

قلت: وليس بجوارك؟

- **ستنطفئ شمعتي، لن أموت من الشرب أو كثرة الطعام، لكن شمعتي ستنطفئ.**

قلت: لكن، انظر ينام في حر الظهيرة، في نسمات خفيفة وعندما يستيقظ فإذا الفواكه العفنة، الخوخ والبرقوق، والحمل على ظهرك، صنبور الشارع لا يفيض بالماء ولا يوجد صنبور في القرية.

لم يجب كأن فمه أُغلق، وكأني وجدت شيئًا مهما فأغلق عينيه، وفتحهما بذبول، وأمسك فكه ولحيته.

قال: أخذت عنقود عنب من الثلاجة؛ خذ يا قوي البنية، فأكلت وشربت بعدها كأس من ماء مقطر.

حقًا فقد أكل العنب، وكأنه شرب ماءً مقطرًا، ولم أستطع قول (بالهنا والشفاء) لأسخر لتعمي عيني.

فقال: امسك لنرى هذا الحمل من الطرف يا ولدي؛ احمل: تمام، هيا استودعكَ الله!

قلت: يا إلهي يا صديقي! انتظر! كنت أودّ أن اسألكَ.

نظر بعينيه السوداوين الحمراوين من أسفل الحمل غاضبًا، وقال: اسأل لنرَ، لكن أمسك بسرعة.

- **كنت سأسألكَ عن منزل اللبلاب ذاك.**

فقال: أيّ منزل؟ أيّ منزل؟

يا إلهي سحقًا! أسيختلط الأمر على الجميع؟ فقلت بأمل أخير: "منزل جان فرماز".

بدأ يصعد المنحدر ويلتفت يمينًا ويسارًا، ويهمس قائلاً: "موجود اذهب إلى عمله يا صديقي، موجود اذهب إليه".

حمل الشيخ الحمّال حمله على رأسه مجددًا على بعد خطوة من الشمس ونظر إلي وقال: "وكذلك أنتَ تبحث بشكل خاطئ ليس جان فرماز، لكن اسأل عن منزل جان فاراماز".

ذهبت إلى سوق القرية، ودخلت إلى محل لبّان، وطلبت منه أن يحضر لي بمئة درهم خبز وزبادي وشربت بعدها عصير تفاح بارد كالثلج.

- كم الحساب يا صديقي؟

- سبعة ونصف خبز وأربعون زبادي، الحساب خمسون قرشًا يا صديقي.

لبَّان أرناؤوطي باسم الوجه ويديه كبيرتان، وعيناه الزرقاوان تأسر الروح حسبني أرناؤوطي مثله ففتح الحديث عن تيرانا، كيجالار، وميجالار وسألني ما إن كنت أعرف الألبانية أم لا. فقلت: "لا أعرفها مطلقا"، ولا أتذكر إن قلت له أنني كنت أتي إلى هناك عندما كنت صغيرًا أم لا.

تشجعت فجأة وأنا خارج من الباب، كأننا كنا أرناؤوط.

قلت: "في أي مكان منزل جان فرماز يا صديقي؟".

سؤالي كان قويًا كالحديد، فوجدت نفسي في الشارع، عندما كان يسير نحوي بغضب سفينة حرب بعينيه الزرقاء في وجهه الأبيض الناعم كحلوى الأرناؤوط، وبينما كنت أخرج من الباب بصق وكان يقول: " منزل من، منزل من يا عزيزي؟".

***

مقهى افتاليكوس

أتي جواري شاب وقال: "مرحبًا".

- أووه أهلًا، مرحبًا.

قال بعدها أنه كان يرغب في التعرف عليَّ منذ زمن، ولكنه لم يجد فرصة، وبدأنا في السير، وكان يسأل عن أشياءٍ كان من الصعب أن أعرف إن كان صادقًا أم لا، فإن كان صادقًا فيما يسأل فلابد الحذر له، وإن لم يكن فالحذر مني. هكذا، ولكن ماذا إن كان يسخر؟ بالنسبة له إن كانت مخالفة، فإيجاد فرصة للهرب سيكون خيرًا، لكن إن كان جادًا فلابد أن يترك هذا الصدق للأطفال وعديمي الخبرة، على كلٍ، فالشعور بالإعجاب الذي تولد في رأسه يوما تجاهكَ سيتلاشى، ولا ينبغي الثقة في هذا الإعجاب، وتلاشيه سيكون جيدًا لي وله، فأنا أشك في أمره، أما كان جلوسنا في أماكننا طويلاً إشارة لما نحسبه؟

وفقًا لأن نية الشاب كتابة مقالات فاحتمال صدقه في السخرية مني قوي، لكن ماذا عساي أن أفعل؟ فلا يبدو أنه ذكي أو حذر؛ وهذا نوع من التحذلق والأصح للتعامل ما إن

كان خيرًا أو سخرية هو اعتباره صدقًا، وإظهار التصديق، فإن كان ذكيًا سيستمر في لعب دور المعجب للنهاية، جيد، فليلعب ولن يكسب شيئًا من هذا، وإن كان صادقًا حقًا فيالها من سعادة هذا يمكن، ألم تتابع الكتّاب الذين لا يروقون لكَ في هذا العمر كأنهم من عالم آخر دون أن تجرأ على التقرب إليهم؟

ألا يوجد كتّاب تخلصوا من إعجابكّ؟ إن رأيتَ جيد[1] كيف لا تنظر لهذا الكهل الثمانيني بإعجاب، وإن وجدت فرصة للحديث معه من يدري لن تتركَ أسئلة لن تسألها.

- **لم يخطر ببالي أن أجلس معكَ على المقهى.**

كنت انظر إليه بجانب عيني فوالله لا يسخر ففكرت: "إن كان لا يسخر ألابد أن اسخر أنا؟".

قال: قصصكَ.

لابد أن يدافع على الفور لكيلا يتم جملة ربما يندم عليها فيما بعد فيقول الشاب أنه يرغب في أن يكون ناقدًا. سيندم على ذلك ولابد أن يتراجع عن طريقه.

قلت: أأنت أيضًا تكتب قصص؟

---

(١) -كاتب فرنسي.

- أكتب شعرًا ككل من في عمري وجربت قصتين، لكن لم أنجح، وبعدها أعمل في النقد، ويمكنني أن أقول إنه لا يوجد قصة تركية نُشرت لا أعرفها لكن قصصكَ.

- انظر إلى الرجل الموجود أمامنا وُلد أعمى انظر فهو ينادي قائلاً: (يا سيد محمود!). يعني أنه يعرف أنه أمام سينما تقسيم، وأن هناك رجل يُدعى السيد محمود في محل بائع الفطائر أمامه العلم الذي يرعبنا كالبصيرة من يدري منذ كم عامٍ يمتلكه.

- مثلًا أنتَ يمكنك أن تستوحي منه.

- ممكن، لكنني لن أكتب هذه القصة أفكر فقط: ترى أعمى يعلم أين هو من خصائص ما حوله أم من الضوضاء؟ أم أنه يحسب خطواته؟ فما رأيكَ؟ فرضًا أن سرت من اليمين ثمانين أو تسعين خطوة سأكون أمام سينما تقسيم، أعندما خرجت من المنزل كان متبقي دقيقة على التاسعة؟ فأسير بتؤدة، لا بد أنها تمام التاسعة الآن ألم يعلم أن بائع الفطائر محمود يغادر متجره في التاسعة.

الظلمة في عينيه ربما خلقت فطنة في رأسه أكثر من التأثير الخارجي، ربما نسير من شيشلي فما يمكن أن نكون لم نلاحظه بين الأصوات الموجودة في حربية والأصوات الموجودة أمام

حديقة تقسيم؟ أحدث تغير في الأجواء؟ أيمكنه أن يجد فرق بين السواد القاتم في عينيه والسواد الروحي القاتم؟ لكن يبدو لي أن الأصوات التي تبدو لنا غير معلومة، لكن بالنسبة له هي عبارة عن ضوضاء غير مدهشة لا تتغير محافظة على ماهيتها التي لا تتبدل.

فنحن لا نلاحظ هندسة الشارع؟ لكن هو ربما رسم في رأسه منحنيات، ومستطيلات، وخريطة الشارع وتفاصيله وربما توجد روائح الأحياء أيضًا فيشتم رائحة كل متجر بشكل مختلف وربما يحتفظ بحفر السقف الي يعرفها وندباته كم أن العمى موضة مثل الأدب القديم أدب التدقيق.

وبينما كنت أفكر في كل هذا كان صديقي الشاب يمدحني دون توقف، وربما كنت أفكر مليًا في الأعمى بتأثير هذه الكلمات.

أخذ الأعمى السيد محمود من الجانب الآخر، ومرّا معًا إلى السلم هناك، وبمجرد أن وطأت قدمه سلم المشاة قال الأعمى: "مرحبا سيد صادق".

قال السيد صادق: "يا إلهي، مرحبًا سيد إيفان، جئتَ مبكرًا اليوم".

- كيف مبكرًا، فالساعة التاسعة وعشرة دقائق.

وكانت الساعة التاسعة وعشرة دقائق تمامًا في تقسيم، وكان هذا أكثر من اللازم والشاب بجواري حينها يسألني عن أي قصصي تعجبني.

فقلت: "لا أعرف، أسمعت؟".

- ماذا؟

- قال الأعمى الساعة التاسعة وعشرة دقائق تمامًا قبل دقيقتين.

فقال: لا يا عزيزي.

قلت: والله.

فقال: هذا مستحيل.

كان هذا ممكنا وحينها اكتشفت الأمر، عندما أخذ السيد محمود الأعمى ليعبُرا الشارع حدث بينهما محادثة لم أسمعها من صافرة الحافلة ربما سأله عن الساعة حينها.

أصبحت أنا والشاب صديقين مقربين، فكنا نتشاجر أحيانًا، وكنت استمع له بإعجاب وهو يدافع عني أمام النقاد الذين لا تعجبهم قصصي، ومرت خمس دقائق حينها، فصمتنا كأننا

نفكر كيف عرف الأعمى الساعة وبعدها سأل: "كيف تكتب قصصكَ؟".

ضحكت ونظرت إلى وجهه لأعلم إن كان يسخر أم لا، لا والله أنه لم يكن يسخر كم أنه ولد صالح.

قال: أكثر قصصكَ التي أحبها (إنسان عديم الفائدة)، وبعدها قال هناك أيضًا (الأب- والابن)، و(تسبيح) وهم أيضًا رائعين، (قبر ذو تعريشة) ليست سيئة أيضًا.

كنت خجلًا، لكني كنت أصمت فرحًا.

- **لكنكَ لم تجبني عن سؤالي؟**

- **عماذا سألت؟**

- **كيف تكتب قصصكَ؟**

استطعت أن أقول: "لا أعلم".

فكرت: وإذا بصوت الأعمى يأتي من أسفل المقهى الموجود فوق الجدار فكان يتحدث مع السيد صادق بصخبٍ.

قلت مجددًا: لا أعلم، كذلك مثل الأعمى للأعمى، فمثلاً أنا أكتب قصة وسميتها.

فقال: وما اسمها؟ ولم يسأل أنني أُسمي القصة أولًا.

فلم أقل: لا، لكن هذا الاسم راق لي لهذه القصة.

فلم يسألني: وما هو؟

- مقهى افتاليكوس وحتى يمكن تجاهل المقهى ويصبح اسمها افتاليكوس فقط، وربما تكون القصة وما يتعلق بها في المرتبة الثانية.

كأنه فهم ما لم أقل فرد: يعني أنكَ تكتب القصة هكذا.

- سألت أنا هذه المرة: كيف؟

فقال: كيف لي أن أعرف تسميها أولًا، وتنسجها وتربطها بنتيجة.

قلت: لا، لا أفعل هذا، أتريد الصواب؟ فأنا لا أعرف جيدًا كيف تُكتب القصص.

قمنا لنحاسب فأظهر الشاب عجلة صادقة لكيلا يجعلني أدفع المال.

فنظر إلينا اثنان بجوارنا، كانا يلعبان الطاولة ضاحكين على حديثنا، أنا سأحاسب على هذا وأنتَ على هذا، فتردد النادل في أخذ الحساب من نقودي وحسبته سيقرر بعجالة من قبعتي وقماشها المتسخ ناظرًا لحالي وحينها دفع الشاب ثمن القهوة فقلت: "عيب عليكَ".

ونزلنا سلالم افتاليكوس فصديقي المشغول بكيفية كتابتي للقصص الآن، وغدًا سيكتب موضوعات بكثرة بذور التين أن هناك كاتب قصص غير جيد، فأنا لا أعرف أتمت قصتي؟ وإن لم تتم فماذا نفعل؟ فهكذا هو منظورنا عن القصة يا سيدي.

***

أيا، أيا!

كنت أسير وكنت ابتهج كلما سرت؛ لأنني خرجت من المنزل غاضبا انزعجت من ماكينة الحلاقة نعم؛ هذا يحدث! بالتأكيد انزعجت من ماكينة الحلاقة.

كون الحقول خضراء، والبحر أزرق، والسماء صافية قضية جميلة ومن قال إنها ليست قضية؟ بله! وإن أمطرت، ماذا لو كانت الحقول بنفسجية، أو البحر أحمر، فإن أصبحت هكذا تصبح قضية.

رأيت ورقة بنية كالشكولاتة، ونعجة بلون اللوز الأخضر فنادى أحدهم من خلفي: أيا!

فالتفت وإذا بزهور السلبين التي لم يشتد عودها على حافة الطريق والخزامى التي في لذة البرقوق ينظرن إلي فدرست أسناني، ولم يكن ثمة أحد في الطريق، فرأيت سطح المنزل والبحر من بين طائرين يحلقان في الأفق وأوراق الشجر وبينما استكمل طريقي فإذا بمن يناديني: أيا، أيا!

أردت أن التفت لأنظر، وربما لم انظر لأنني أردت ذلك بشدة ربما، فنادى طائر من السماء أيا، أيا ومر ومرت من خلفي أفعى، وسلحفاة، وقنفذ وهناك ذبابة ربما هي من نادت أيا، أيا.

من جديد نادى صوت: أيا!

ربما هذه المرة التفت لأنظر بغير رغبة، وبدا لي أن أحدهم يتخفى بين الشجيرات، فجلست على جانب الطريق وكان يرعى حمارًا جواري، وكان لونه كاللوز الأخضر أيضًا، وكم كان فمه جميلاً، وأسنانه، وآذانه، ورقبته! يأكل العشب ويقثو، وربما سمعت هذا القثو كأنه ينادي: "أيا!" ونادى صوت آخر غير صوت مضغ الحمار للعشب: "أيا، أيا، أيا!".

أحيانا ينادي صوت تعرفه في أعماق أذنيكَ اسمكَ، أما يحدث هذا؟ نادر جدًا، وربما أيضًا يناديكَ صوت من رأسكَ تحبه وتتذكره جيدًا دون أن يكون صوتًا فهذا ممكن.

خيّم ضباب غريب ومشهور على الشمس فجأة لا يشبه السحب، ويد متسخة سحبت قماش من فوق ظهر الحمار ذي لون اللوز الأخضر، وأخذته؛ فتساقط فروه على الأرض، وألبسته معطفه القديم الرمادي، فأكملت طريقي، ولينادي أيا كيف يشاء فحتى لو كان صديقًا حقيقيًا، حتى إن لم يكن أحدًا، أود أن أكون مجنونًا ينادي على نفسه أيا، أيا، فلن أهتم.

ربما طائر، وربما سلحفاة، وربما قنفذ أيضًا، وربما المنادي سمكة من البحر القريب، أو وحش، بل هو الغاق، أو طائر الشقراق.

الأفضل أنني من أقول لنفسي أيا، مررت حينها، وهمس صوت لا يشبه (أيا، أيا) فاتبعته، فرأيت أمامي فجأة رجلاً وامرأة يسألان عن طريق (قالباظن قايا)، فقلت: أنتما فيه كأن الطريق تحرك فلم يسيرًا، وابتعدا عني خطوتين ورأيت ابن القسيس منبطحًا بين الأغنام، فقام وهو يشبه مخلوقًا أحمقًا كالديك المرقط، ومسح لُعابه، ومسك كبشه من قدميه فتكوّم على الأرض مع الكبش، وقبّله من أنفه، ونظر بوجه قبيح أحمق هائج، ذهبت إلى حقل ورد الآن، وحتماً كان الطائر من ناداني (أيا، أيا!) هناك طيور هكذا لا تزقزق لكنها تنادي، نعم كان طائرًا.

كان هناك رجل يحرث الأرض يدوس بقدمه على المعزاق، ويقلب الأرض التي تميل إلى الاحمرار فوق بعضها قال: "مرحبا يا صديقي".

- **أهلًا، مرحبًا.**

فانشغل في عمله مجددًا وقلت: "أيا، أيا"، فلم يهتم ناديته مجددا: "أيا!"، فلم يهتم مجددًا قلت بسرعة: "أيا، أيا، أيا!".

قال: تفضل يا عزيزي.

قلت له: لم أقل شيئًا.

وضع خنصره في أذنه، وحكه ثم أخرجه ونظر إليه، وتظاهر إنه يمسح مكان انحراف المعزاق.

قلت: "أيا، أيا!".

رفع وجهه إلى السماء فنظر إلى الطيور، ثم نظر إلى البحر، ثم عاد ونظر إلي في شك.

سألته: كيف حال الخرشوف هذا العام؟

أجابني: ليس جيدًا.

- **متى ستجنون الفول؟**

- **مازال باكرًا.**

قلت: "أيا!" كأنني اتنفس.

مجددًا نظر إلى البحر، والسماء، وإلي في شك.

قلت: لا بد أنها الطيور.

قال: أيضًا يتبادر إلى أذني هذا الصوت، ولكن من أي مكان؟ أصبحت في الأساس لا اسمع جيدًا بأذني.

قلت: لا بد أن تغسلها، حدث معي من قبل.

- **أغسلتها؟**

- لم أغسلها، لم يعد ضروريا، ذهبت إلى الطبيب وأخرج ما فيها من وسخ سريعًا.

فسألته: كيف حال الأطفال؟

أجابني: جيدين كانوا تسعة أصبحوا ثمانية تعلم قصتهم...".

قلت: اصمت، اصمت! فجرح القلب هذا هيا استودعكَ الله!".

قال: مع السلامة.

وعندما ابتعد قليلًا: "أيا، أيا!"

فعلمت هذه المرة أنه كان البستاني كان هو.

قلت: هيا هيا، مسكت بكَ هذه المرة.

فقال: لا والله، والله لم أجن الفول بعد، لماذا أخبئه عنكَ، ألن تشتريه بالمال؟

- ألستَ أنتَ من قال أيا؟

- أنا أيضًا سمعت هذا الصوت، لكن لم أعرف من أين؟

ليأتي من حيث يأتي من الجبال، أو الطيور، أو البحر، أو الإنسان، أو الحيوان، أو العشب؛ أو الذباب، أو الورد ليأتي من حيث يأتي! فكلمة أيا عندما لا تسمعها أيا يكون هذا سيئا

وبعدمـا تـأتي فلتحيـا الزهـور، والذبـاب، والنـاس.

- **أيا، أيا!**
- **أيا، أيا!**
- **أيا، أيا!**

***

موت سمكة الجندوري

عيونهن جميعهن جميلة حليهن، عندما يكن أحياء يستحق أن يعلق زينة على ملابس النساء، وآذانهن، وصدورهن، فما الألماس، والياقوت، والعقيق، والزمرد؟

لو كان ممكنًا؛ لدخلت النساء الحفلات الراقصة بألوان ظهور الأسماك الحية المتموجة، فالصيادون يجنون الملايين، والسمك يجني المجد والشرف، وللأسف بمجرد أن تبهت وتموت يذهب لمعان ظهورهن إلى صغارها الحزانى، والسمكة التي أحكي لكم قصتها لم يكن لها لمعان، أو حُليّ بألوان متموجة، ولا يوجد أيضًا زينة للمسكينة، فكانت سوداء بلون أخضر خفيف غير واضح، كانت أقبح الأسماك ضخمة، دون أنياب، ولديها فم أبيض شفاف من النايلون؛ بمجرد أن تخرج من الماء يُفتح بمقدار شبر يُفتح ولا يُقفل مرة أخرى.

ألم أقل إن جسدها متسخ، أسود؟ ألم أقل أيضًا أنها مسطحة تمامًا؟ كذلك لم أقل إنه كان على جانبيها في الوسط آثار إبهامين يمكننا قول إنهما بقعتين سوداوين؟

هـذه السـمكة التي يسـميها الصيـادون اليونانيون هريسوبسـارس (سـمكة هريسوبسـارس) أصبحـت وحشًـا بحريًـا مرعبًـا، مـع الوقـت كان تسـبح إلى البحـر الأبيـض بدهشـة قبـل ميـلاد عيسـى ليتهـا لا تسـقط في بحـر فينيقـي! لم تكـن هـذه قـوارب صيـد صيـاد بنـي إسرائيـل التـي أغرقتهـا سـفن حنبعـل، يقطـع، ويحصـد، ويفـرق، وينكـز، ويعلـق، ويمـزق، ويقطـف، ويلقـي، ويجـزئ، فهو أشـجع قرصـان بالبحـر الأبيـض لا يخشـى البـشر أو الحيوانـات ولا العاصفـة أو الصواعـق ولا المطـر أو الكـوارث، ولا حتـى العـذاب، لكـن يمتقـع لونـه إذا سـمع اسـم سـمكة الجنـدوري.

بينما كان يتجول عيسى على حافة البحر ذات يوم رأى صيادين يتركون قواربهم في ذعر شديد ويهربون وعندما سألهم: "ماذا يحدث؟".

قالـوا: يـا إلهـي، وا أسـفاه مـن هـذا الوحـش! كـسر قواربنـا، وفتـك بأصدقائنـا، فأصبحنـا لا نصطـاد السـمك، سـنموت جوعًـا.

سـار عيسـى حافيًـا أشـعث باتجـاه البحـر، حيـث تحركـت أسـماك الجنـدوري فأمسـك بأكبرهـم بيـده ذات الأصابـع الطويلـة، وأخرجهـا مـن الميـاه، وأحكـم قبضتـه عليهـا بأبهميـه، وقربهـا إليـه، وهمـس إليهـا ببعـض الكلـمات.

وفي ذلـك اليـوم كانـت تبـدو أسـماك الجنـدوري مدهشـة في البحر لكـن ظهـرت بمظهـر المخلـوق الأليـف المسـكين، وكان لديهـا نتـوء

وأشواك في أماكن عديدة تشبه المسامير، والقدوم، والانحناءات، والكلابة، والمنشار والمبرد، ولابد أن لهذا السبب سُميت سمكة الجندوري بهذا الاسم.

تحيط كل هذه الأدوات بالغشاء المزخرف ما يمكننا أن نقول إنه من النايلون الشفاف والغشاء الرقيق الموجود في الذيل يتسمك قليلاً، ويقتم لونه، ويتشكل بذيل السمكة.

عندما تعلق بالسنارة تضيق بها الدنيا، والمياه ومن يدري بأي خوف شعرت؟ الدنيا بالنسبة لها خاوية إن نجت من السنارة لن يفيد تتسطح على وجه الماء وتظل ناظرة إلى الإنسان بعينيها الواسعتين، وعندما تأخذها إلى القارب تسمعكَ صوتها لدقائق نعم صوتها! هذه السمكة وكذلك سمكة الدجاج الرملي تصدران صوتًا يشبه الصراخ أو الزفير إلى أن تموت في القارب ليتها لم تصطدم بفمها ذي الأغشية الرقيقة فهذه هي صورة سمكة الجندوري الساخطة.

ذات يوم رأيت سمكة الجندوري مُعلقة على غصن شجرة الطلح المتفتحة زهورها، وكان نصفها أحمر والآخر أبيض أمام مقهى الصياد وكان لونها أسود كلونها، عندما خرجت من البحر، ولا توجد حركة في جسمها دون روح كالحجر، ولكن فقط أغشيتها الأرق من الحرير والمحاطة بأدوات الصيد تظل

تتلاعب، ولم أرَ تلاعب من قبل كهذا نعم كانت هذه لعبة لعبة رياح خفية، ولا يبدو في جسدها أية رعشة فقط هذه الأغشية كانت ترتعش بأناقة ممتعة، ففي بادئ الأمر هذه الرعشة التي تبدو شيئًا ممتعًا ومسليًا للإنسان كانت في الحقيقة رقصة الموت، وإن فكرت السمكة أنها أشرفت على الموت يمكن أن تصبح هذه الرعشة متعبة، لكن الإنسان مجددًا يحاول ألا يفهم هذا المعنى، وربما كان هذا الموت ممتعًا جدًا، وربما تظن السمكة أنها مازالت في المياه، تسبح في الأعماق كأن كل شيء على ما يرام، حلّ المساء ورمال البحر مدغدغة، وتظن أن بيض الإناث بالأسفل والحيوانات المنوية تتراقص من فوقها وأحاطت بجسدها لحظة النشوة، ورأيت فجأة شيئًا غريبًا، بدأت السمكة في التحول للون الأبيض بشكل عجيب، وتتخلص من لونها، فامتقع لونها، تُرى أيتخيل لي هذا؟ أم أنها تغير لونها حقًا؟ علمتُ أنني لم أخطئ عندما رأيتُ أنه لم يعد ضروريًا القول والتدقيق في النظر.

بدأت الأغشية التي تزين جانبي السمكة في الإسراع في الاهتزاز، ومع مرور الوقت من لحظة لأخرى تتلون السمكة بالأبيض، فشعرت من داخلي بالخوف الذي يملأ قلب سمكة الجندوري، وكان خوفًا نعلمه جميعنا هو الخوف من الموت.

فهمت كل شيء الآن انتهى العالم في أعماق البحار فلن تترك جسدها مسطحًا للتيارات، ولا تُدفن في الطحالب الخضراء في المياه القاتمة، ولن تبحر من السطح إلى الأعماق كل صباح، ولن تستيقظ سريعًا في الضوء الرطب، ولن تتلاعب بذيلها داخل الألعاب الزرقاء والخضراء، ولن تخرج فقاعات ولن تفر إلى السطح، ولن تستلقي على الطحالب، الطحالب الحية، ولن تعلق في السنارات فيتم صيدها فلم يعد هناك صيد أنتهى كل شيء.

يستمر موت سمكة الجندوري طويلاً كأن السمكة تحاول الاعتياد على الأكسجين ما نطلق عليه الهواء، ويبدو لي لو كانت أسنانها محكمة لكان اعتيادها ممكنًا.

سكرات الموت التي تستمر ساعتين، ألم نطيلها إلى أربعة، والأربع ساعات إلى ثمانية والثمانية ساعات إلى يوم، أظن أننا سنرى بينما سمكة الجندوري تعاني من هذا بيننا.

سنحتفل باليوم الذي تعتاد فيه على محيطنا (مياهنا) فمنظرها وقح ومرعب، لكننا سنفعل ما بوسعنا لنحزن هذا المخلوق الغاضب في الأساس والهادئ، الجبان إلى أقصى درجة والحساس أيضًا ذو القلب الطيب بنظراته العذبة الخائفة ليتذمر مما أذقناه وسيتعجب، فقد كان يتحمل سابقًا سنجعله شاعرًا، متذمرًا، غير مفهوم وسيتخلص ذات يوم من حساسيته وفي اليوم

التالي من الحب واليوم الثالث من خوفه وهدوئه، وسيسأم وسيتخلص من كل شيء جميل بداخله واحدًا تلو الآخر، آه سيحفر عيسى بفأسه مكان آثار أصابعه التي أمسكها بها من خصرها مُظهرًا الألم من الأشواك والكلابات والمبارد والمناشير وستتحول إلى وحش العصور الأولى.

ليتها لم تعتد مياهنا ولو لمرة؛ فلن نفوت أي فرصة لجعلها شبحًا.

***

الرأس والزجاجة

تجولت طوال اليوم دون أن أعرف ماذا أفعل، فمنذ وقت طويل لا أعرف ما أفعل؟ ولكن يمكنني أن أرى ثمة أمور، إن تجولت هكذا وإلا سيكون هباءً وإن تحذرت! ولا أزعم أنني رأيت أو سمعت أي شخص هكذا، أو أمتعة أو حادثة كما كان متوقعًا، أرى أن الأمر عديم الفائدة وكذلك أدق التفاصيل، لكن فاتني الجزء الأساسي وإن دعونني للشهادة سأكون في مأزق لا محالة أتذكر رجلاً سحب سكينًا في الشارع فلم أرَ السكين، لكن عرفته من حاجبيه، لم أرَ الدم المسال من الشخص المطعون، ولا الألم في وجهه، رأيت أمورًا غير مناسبة.

إن سألني القاضي: "هل هذا من سحب السكين؟" سأنظر قبلها إلى حاجبيه فإن شذب أطراف حاجبيه صدفة ولم أقل: "لا، ليس هو"، أكون قد كذبت، أو أنني أستأذن القاضي؛ لأرى إن كان شذب أطرافهما أم لا، وإن كان الأمر كذلك فهذا أنا أصبحت رجلاً سيئًا في الشهادة، لكن كنت شاهدًا على شجار مساء أمس وأريد أن أحكيه. كانوا أربعة شباب في دكان الطاهي

والحانة في الوقت نفسه دخلوها لشرب الخمر ودخلتها لأتناول الطعام؛ ولأنه كان يومًا عاديًا كان هناك ثمانية أو عشرة طاولات ممتلئة وعشرون خاوية جلست على طاولة لشخصين في زاوية أمام ثلاجة العرض، أو عرض الثلاجة، وكنت بمفردي كنت بمفردي، لكن كأن أمامي صديق خيالي أحب صديقي الخيالي هذا كثيرًا حتى أنه أحيانًا عندما يتحدث استغرق في شفتيه فوددت أن أقبله أحب يديه، ولون عينيه وتنهال داخلي أشياء منه دون توقف كالمطر ولا تؤذيني كلماته، ولا يتحدث بكلام ثقيل ولا يطيله، ولا يبصق، أو يصاب بالحكة، صديق مثالي، أرجل أم امرأة، غني أم فقير، متعلم أم جاهل أم كهل؟ مثلما أقرر يكون كذلك، أحيانًا تكون فتاة مثقفة دون مستحضرات تجميل أو زينة تتحدث بلهفة، وأحيانًا أخرى شاب جميل في السادسة عشر أو السابعة عشر ليس متعلماً، دهان حوائط، مسيحي، لديه عينان سوداوان كالفحم، عندما يبستم يصبح أفضل من البشر ولا أشبع من النظر إليه، وأحيانًا يكون ستينيًّا ذي خبرة وقد عمل بالنجارة، والميكانيكا، ورسم الدعايا على الجدران باع الفستق وباع الشمام والبطيخ، ويشوي الكباب في زوايا الطرقات، وعندما يكسب المال يشرب في المساء فيروي القصة تلو الأخرى فلديه قصص بطولية، وقصص زوجين وقصص قتال وحروب كنت مع أحدى هذه القصص، نسيت يوم

أمس، ها أنا وصديقي الخيالي نجلس معًا نتحدث ولا أعرف ماذا كنا نقول أو عماذا بدأ حديثنا؟ وفجأة طارت زجاجة خمر بجوار أذني فتهشمت على الزجاج السميك لثلاجة المعرض.

كان يقول أحدهم: أيها القواد، لماذا تنظر إلى هكذا؟!

نظرت أمامي إذ صديقي أسود العينين فقلت: "توقف يا هذا، توقف لنرى، هل أصبح النظر جريمة يا صديقي؟".

- **تختلف نظرة عن أخرى يا عمي.**

- **أيها الشاب لا تحزن ودع الرجل الكهل ربما يشبّهكَ بأحدهم.**

التفت فنظرت إلى الرجل: يا للعجب!

كهل ذو وجه تتاري، ولحية بيضاء، وعينان ضيقتان، دون حواجب، أو رموش ولا يتفوه بكلمة، يضحك وامتقع وجهه وارتجفت يده من الخجل.

بينما كان يقول: "لا والله خطأ، هذا خطأ.. يا بني! يا صديقي! يا جميل!"، غضب فجأة.

فقال: ماذا حدث يا هذا، وماذا حدث إن نظرت! إن كنت موسوسًا بهذا القدر، فما أتى بكَ إلى الحانة لا شيء حرام على العين، فالنظر إلى الجمال ثواب! ثم ابتسم.

قلت: تعال جواري!

أجلسته مكاني ومررت للأمام ذهبت لأهدي ذاك الشاب وأطلب راقي للكهل.

أصررت قائلًا: مستحيل اشربوا أنتم أيضًا.

كنت أريد أن أرسل زجاجة راقي للشباب الثائر.

فقال: "دعكَ، إن رأيتهم في مساء يوم آخر أرسل لهم ولا تضغط عليهم وإلا يرتكبون حادثًا، وافرض أنني نظرت ماذا حدث يعني! أجول الحي منذ الصباح مناديًا (شاحذ)، فلا أخشى السكين يورد علي السكاكين بأنواعها كل يوم، فلا أخشاها والله! لديه وجه جميل فنظرت".

قلت: مستحيل، لكن انظر أبي الشاحذ يبدو أن العيب عندكَ.

رمقني وقال: وماذا تعمل أنتَ؟

أجبته: لا أعمل.

نظر إلى شزرًا: أتتجول متشردًا؟ ما شاء الله! لكنكَ مهندم. دعكَ! لا تكذب، قل لي: ماذا تعمل؟

- **أعمل، لكنني لا أذهب إلى العمل.**

- وهل تكسب المال؟

- أكسب ثمن السجائر.

- ألديكَ ميراث من أبيكَ؟

- وهل يحدث هذا، لا تطل يا عزيزي! لماذا تسأل كثيرًا عن عملي؟

- تبدو كأنكَ مثقفًا.

- وإن كنت أبدو هكذا فماذا سيحدث؟

- قال: المثقف لا ينصح.

- وماذا يفعل إذًا؟

- يفهم الناس، ويفهم ماذا سيفعل.

نادى على النادل وأرسل إلى الشباب زجاجة بيرة وقال: "قل لهم هذه من عمكم الشاحذ".

وعندما لم يرد النادل في إحضار الزجاجة تميع الشاحذ في مزاحه فأحضر النادل ميخال عديم الحيلة الزجاجة.

قام الشاب الوسيم الذي تدلى شعره على جبهته من الطاولة المقابلة وسار نحو طاولتنا وفي يده زجاجة الخمر التي أحضرها النادل ووقف أمامه، وضحك.

دفعني كأنه يرفعني قائلاً: " لا، دعني، لن أفعل شيئًا، والله سأشرب في صحته".

لم أسمع أي صوت لا صوت اصطدام الزجاجة برأسه، ولا صوت الخمر المنسكب على رأسه، حدث ما حدث عندما التفت لأنظر خلفي ظننت أن الشاب سكب زجاجة الخمر على العم الشاحذ تتقطر الخمر من شعره الرمادي.

وضع الشاحذ يده على رأسه وبينما خرج النادل يصرخ قائلاً: الشرطة، رفع يده من فوق رأسه أحمر وجهه وعينيه فجأة، فنظرت إلى الطاولة، فإذا بزجاجة الخمر سقطت جانبًا تنسكب على الأرض، ومجددًا نظرت إلى الشاحذ نظرت إليه جيدًا هذه المرة امتلأت عينيه بالدم.

***

لن أنزل السوق

كأنني أبدأ كتابة المقال من جديد، فلم أمسك قلما منذ شهور، حتى وإن أمسكت أكنتَ ستنتج شيئا؟ لا أظن. هذا جيد! أو الأصح أنا ممتن لهذا، ولكن لماذا هذا المساء كل شيء يجبرني على الجلوس والكتابة؟ لو قلت إنني تحملت أكون كذبت سأقول أشياء لا أعرفها أجبرتني، لا دائماً ما يحدث هكذا، أكتب المقال بينما انتظر الباخرة وأنا ارتدي حذائي.

لا تهتم لكوني اتحدث كأن أحدهم سألني: "كيف تكتب؟"، فلا أدقق كيف أكتب المقال، بحثت ذاك المساء فلابد أن أعترف أنني جلست في ضيق أمام ورق البقال المشور ذلك، فأيًا يكن نوع هذا الضيق، أحاول أن أعرف لماذا أعمل وأنا في ضيق، بينما هناك حلول لتجاوزه؟

هكذا: لماذا؟ جيد أن لي كتب تُقرأ ولدي منزل وإن لم يكن لدي المال حتى ومدفأة وطعام وهناك مذياع بالأسفل، لكنني لن أنزل السوق لن أنزل، لكن لا أقوى على ترك التجول في الجبال آه! أضع قبعتي، وأذهب إلى قلبازقايا، وأوشكت الشمس على المغيب،

يـا إلهـي، احـذر! تُسـتحضر صـورة العـالم من خلـف مغيب الشـمس ولا أنـوي أن ألـون الأمـواج، أو أن أحمـص الأفـق كشريحـة خبـز.

انظـر! فعلنـا مجـددًا مـا نفعلـه لوّنـا الأمـواج وحمصنـا الأفـق جيـدًا، فهكـذا نحـن درسـنا الأدب الـسيء؛ مـاذا نفعـل؟ بدأنـا الاتجـاه إلى الشـعر.

قلـت لـن أنـزل السـوق فلـماذا لـن أنـزل؟ الجانـب المهـم مـن المسـألة هنـا أن هنـاك سر غريـب لم أرغـب في الإفصـاح عنـه طـوال ذاك المقـال المكـون مـن عـدة سـطور، وبدايتـه جملـة (لـن أنـزل السـوق)، لا يمكنكـم تخيـل كـم أنني وددت أن أتخلـص مـن هـذه العقـدة، لكـن ليـس بملكـي ولا بوسـعي، لكننـي لا أسـتطيع أن أكتـب ولّـما أكتـب أسـأكون مثـيرًا للسـخرية؟ ومـاذا سـيحدث في كـون المـرء مثـيرًا للسـخرية؟ إن لم يولـد المـرء لكـي يكـون مثـيرًا للسـخرية، فقـد ولـد للسـخرية مـن غـيره، فيتجـه كلاهمـا إلى بـاب، ولا يخرجـان منـه ولا شيء يتغـير، ولكننـي أفعـل، فـلا يـروق لي السـخرية مـن أحدهـم، أيـروق لي أن أكـون مثـيرًا للسـخرية؟ أيحـدث شـيئا كهـذا؟ قطعًـا لا أرغـب أن أكون مثـيرًا للسـخرية، وفي هـذه الحالـة لـماذا تتغـير أنـتَ؟، يـا رجـل؟ وإن قلـت لكـي أتلـذذ بإنسـانيتي، ربـما لـن يمكنكـم تقبـل بعـض الأمـراض، وإن قبلتم، وا أسـفاه عـلى كل العيـوب الإنسـانية والحيوانيـة!

وإن قلت لكم الآن أنني موظف ميسور الحال، أكسب في الشهر أربعمائة أو خمسمائة ليرة في الشهر، ولدي ابنتان، تدرسان في تلك المدارس، وزوجتي متكبرة قبيحة، فأعود بالمال الذي تحصلت عليه إلى المنزل، كل ما أصرفه في الشهر كيلو من الراقي ولدي ثلاجة كأي ثلاجة، حيث تقبع الزجاجة، زودتها بمقدار أصبعين أول الشهر وأتحمل هذه التضحية، وأقول لنفسي لأقدم لصديقي الذي أتي على حين غفلة، على كل! افرضوا أنني لدي طبع سيء أخر اقترض قليلاً من هنا وهناك، بالطبع على أن أسده أول الشهر ويتبقى مصروف لي ثلاثة وستون ليرة وخمسة وثمانون قرشًا ما تمكنت أن استخلصه من زوجتي، ليتني أنفقت أموال الشهر الماضي كلها على ملذاتي، وليت كان على دين صغير لبائع التبغ مقابل الجريدة، وورق لف السجائر (البفرة)، وبضعة ليرات لصاحب الملهى مقابل المياه الغازية، واثنتا عشر ليرة لبائع المهلبية؛ ولأنني لم أسد ديني الشهر الماضي، فهذا الشهر مجبر أن أدفع خمسين أو ستين ليرة فهل لي أن أنزل السوق، فلا يمكن أن أنزل أليس كذلك؟ نعم يمكن أن تنتهي القصة هكذا ليضحك الضاحك، وليبكي الباكي وليقل من يقول: "لكن يا لها من قصة!".

وهناك من سيفرح قائلاً: "لم يعد يكتب"، وعلى الرغم أن جميعكم تعلمون أن من كتب هذه السطور ليس موظفًا سأسدد

الديـن للبقـال والمقـال، وبائـع التبـغ وغـيره لكـن لـن أسـده لـن أسـتطيع وإن أردت سـداده فلـن يطلـب بائـع التبـغ أكثـر مـن ثمـن عـشر ورقـات لـف سـجائر، وكذلـك لـن يطلـب بائـع المثلجـات أكثـر مـن ثمـن ثلاثـة، وصاحـب المقهـى لـن يطمـع في أكثـر مـن ثمـن سـبعة أكـواب قهـوة، وبنـاءً عليـه لـن أسـتطيع سـد الدّيـن وليـس هـذا هـو سـبب عـدم مقـدرتي عـلى نـزول السـوق، ليـس هـذا فـما هـو إذًا؟ أمسـألة بالنسـبة لكـم عـدم مقـدرتي عـلى النـزول إلى السـوق؟ لا أظـن فهـذا لا يهمكـم وإن جعلـت منهـا مسـألة اغضبـوا منـي إن أردتـم، لكـن عـدم نـزولي إلى السـوق مهـم جـدًا لكـي أتمكـن مـن بـدء كتابـة ذاك المقـال، وإن حاولـت أن أشرح لمـاذا لا يمكننـي أن أنـزل سيسـتمر هـذا طويـلاً، ولـن يفيـد أيضًـا؟ فـلا أريـد أن أقابـل أحـدًا، قـدروا هـذا وحسـب.

لننهي هذا بعد الآن! لن أنزل السوق وحسب.

آه هـذا ممنـوع! فالمنوعـات التـي نضعهـا وسـنضعها لأنفسـنا، ويضعهـا الآخـرون أمامنـا، ونضعهـا أمامهـم، والتـي تضعهـا الدولـة أمـام رعيتهـا، والرعيـة أمـام دولتهـم، والقريـة أمـام سـاكنها، والسـاكن أمـام قريتـه!

إن لم نعـش في عـالم محـاط بالممنـوع؛ فلـم نقـدر أن نعيـش وعـلى الرغـم أن الحيوانـات؛ ولا سـيما الأليـف منهـا يعيشـون سـعداء

دون ممنوع، فإما يعيشون بسهولة ودلال، ما أسعدهم- بخلاف الشجار الناجم عن الجوع؟ فقبلنا الممنوع ويمكننا أن نطلق على الإنسان أنه حيوان ممنوع، أليست ممنوعة الجراثيم كلها؟ والحب حرام بزوغ اليوم، والماء، والطعام كل هذا حرام فالناس محرّمون على بعضهم.

لا أستطيع أن أقبلك أيها الطفل الجميل لأنني لا أرغب! ولن أنزل إليك أيها البحر لأنني لا أرغب، صدري ضعيف والطبيب منعني لن أشرب لأنني لا أرغب: هذا محرم على الكبد إلى أن أسكر حتى الثمالة، ويذهب العقل، ولن أركب الباخرة وأذهب إلى حيدر باشا [١] ومن هناك إلى فان[٢]، سأموت في الطرقات، ولن أنزل السوق لعن الله السوق! يمكن أن يرص البقال القرامانلي اللؤلؤ على شاربه، ويمكنه تهذيب شعره، ويمكنه أن يغطي جسده كله بالفضة، أتتحدث الفضة؟

لو قلي بائع النقل السجق مدخنًا بعد أن أشعل النار على المرفأ، وتجمعت القطط حوله، وعوت الكلاب، واحترقت المشعلة، ولو لم يرَ شيئًا من السجق والخمر، واحتفل بحفل زفاف أربعين يومًا وليلة في مصيف إسطنبول مع قطط المدينة،

(١) -حيدر باشا: حي بمدينة قاضي كوي بإسطنبول.

(٢) -فان: مدينة بالأناضول شرق تركيا.

وكلابهـا، والسـجق، والصيادين، والحمالين الأكـراد سـينفد دكان بائـع النقـل، وإن ذهـب رجـل في اليـوم الواحـد والأربعين ليشـتري السـجق مجـددًا والسـلامي، والسوسـيس، والجبـن الشـيدر، والخمـر سـيصبح غنيًـا دون أن يمـر أربعـون يومًـا مجـددًا.

مجـددًا، يتجـول في السـوق بشـاربه الغزيـر الأسـود وعليـه حبات كمـون، وأسـنانه وعرقـه برائحـة الثـوم، وبطنـه ممتـلأ بالجبـن، وصدريتـه كالجيفـة، ومعصـماه بسـماكة كاحـلي أهـذا هـو الفـران؟ في تلـك الصباحـات الطاهـي الـذي يشـبه السـوط يعلّم الأطفـال صنع الفطائـر ذات الدهـون القـذرة مقابـل خمسـة وثلاثـين قرشًـا أعطيـه أنـا أكثـر مـن ذلـك، الفـران الـذي لا يفـك النقـود لأحـد مـن الخـوف! فـذاك الفـران الـذي يبنـي صفوفًـا مـن البيـوت للإيجـار والـذي يطعـم نعاجـه وخرافـه مهـما كان لديـه مـن عشـب ناضـج!

والآخـر الـذي يخلـط مـع كل نـص كيلـو مـن اللحـم الشـحم الـذي يبعـث عـلى الجشـأ في ماكينـة الفـرم، هـو السـيد القصـاب الـذي يفكـر في الشـحوم، والماعـز، والجامـوس جالسًـا عـلى كرسـيه وينبعـث رائحـة منـه تمتـد لخمسـين خطـوة! كأننـي أقـول لـن أنـزل السـوق لكيـلا أرى وجههـما، لا ليـس لهـذا السـبب، تأكـدوا أنني إن نزلـت السـوق سـأقول للبقـال: "يـا إلهـي سـيد نيكـو!" وللقصاب: "وا أسـفاه سـيد هارالامبـو!" وللخبـاز: " أووه سـيد عبـد القادر!".

وبعد هذا أهم فقط من في السوق؟ لدينا أيضًا صاحب المقهى إسكانافي، لا يهمه الدنيا، لا يسمّي النقود نقودًا، إن لم يكن لديه نقود يفكر قليلاً فهم كمثل الجميع، وإن كان لديه النقود يطلق ضحكات صاخبة فلا يفرق كثيرًا بين المئات والعشرات، ولا يطمع في المزيد، رجل كالسكر ففي أحد الحروب اختفى تحت سقف منزله طوال الحرب، وبعد وقف إطلاق النار خرج مرة أخرى، وحكي الأيام التي قضاها تحت سقف منزله. الاضطرار! اضطر أن يؤجر منزله في الصيف أثناء الحرب، فاندهشت زوجته من كونه يظل محدقًا في السقف دون أن يتحدث، فعندما سمع أن القصاب بدأ لعبته جن جنونه، وفي يوم آخر بعدما فهمت زوجته كيف يطعن قالب الجبن بالسكين النافدة إلى مائدته المستأجرين، وكيف أنه يرفع قالب الجبن إلى السقف أمام أعينهم، وكيف ولماذا يفعل ذلك دون أن يكون مصابًا بالجنون؟ وكذلك بعدما علمت أمر المستأجرين فطنت للأمر عندما دعوا إسكانافي كل مساء لمائدتهما فهذا الماكر عاقل!

وبعد ذلك السيد حلمي الحلاق، ليته لم يرو قصص ذبول شبابه، بعيونه التي تشبه عيون الجن ورأسه الأصلع، فتحزن هذه القصص المرء وتتركه، فحكايات الألاعيب التي كان

يلعبها الحلاق الجميل على عاشقاته من ذكريات ربط كل شيء من الجانب المضحك بالاستمتاع وتحويله إلى مزاح، ومكر وذكاء، وكذلك من ذكريات العالم الممتعة والمضحكة.

ألدينا مزيد؟ هناك السيد باندلي بائع اللبن، لديه مسدس معلق في متجره، فكل من يدخل متجره ليلاً بعد السادسة يكون من أعضاء المنظمة، وهذه المنظمة هي منظمة تفجير، فهناك إذن لكل أنواع التفجير.

بل إن الأمر قبيحًا بعض الشيء، لكن بمجرد أن يدخل عضو المنظمة من الباب إن لم يفّجر بفمه أو بأي شيء أخر يدخل هذا الكهل في حديث مع بائعي الخضراوات والطهاة والبستانيين أصحاب الخبرات، وإن فجّر يعطي السيد باندلي الصدارة للعضو المنضم حديثًا، فلا أحد يضحك، بل يطلق الجميع ضحكات بأعينهم فقط حسب شدة الانفجار، فتذبل هذه الضحكات في أعينهم ببطء، فتتابع أعينهم وقائع اليوم، وتلك الوقائع تكون بلاهة من لا يكسبون النقود ولا يأكلون، وفي النهاية مثل هؤلاء ممن لا يملأ أعينهم إلا التراب ينهون اجتماعهم بحكمة.

لماذا لن أنزل السوق؟ أنا عضو بالمنظمة، فاسمع قصص الدنيا مقابل حلاقة عند الحلاق، وتنفجر معدتي من الضحك،

ولـو لم يحـدث أذهـب إلى مقهـى إسـكانافي.

- وأسـأله: حسـنًا يـا سـيد إسـكانافي. مـاذا فعلـت العجـوز عندمـا رأتـه يرفـع قالـب الجبـن إلى السـقف؟

- فأجابنـي: صلّبـت، وقالـت مريـم العـذراء، فـيراسي، كاليـوبي، كيـف هـذا؟

- حسنا ماذا عن... لماذا فعلتَ ذلك إذن؟

- سـئمت يـا رجـل هنـاك رجـل عـلى السـقف لتفهـم الآن، كنـت أحـدث جلبـة ليـلاً، ولم ينهضـا مـن نومهـما، كأن تـراب الموتى ألقـي عليهـما، وإن نهضـا قليـلاً يقـول لزوجتـه: "يقولـون فـيراسي، كاليـوبي!"، ويقـولان: " أيضًـا أهنـاك فئـران بحجـم الإنسـان عـلى السـقف؟"، خفـت مـن أن يغيظهـما هـذا الأمـر، فوجـدت هـذا الحـل لكـي أقـول إنـه لا يوجـد فـأر في السـقف.

نعـم السـوق محـرم عـليّ. انبعـث دخـان مـن السـوق المضـاء بمصابيـح عليهـا ذبـاب، وداخلهـا خمـس وعـشرون شـمعة صغـيرة، وأريـد أن أقـول لمـاذا لـن أسـتطيع أن أنـزل السـوق؟ لكـن بـم يفيـد؟ مـن يهمـه.

وضعت قبعتي، وسـترة الصيـاد وربطت رقبتي كأن أسـناني تؤلمني وخرجـت إلى الشـارع، فمـررت أمـام المقهـى، هنـاك، كان هنـاك.

عـدت، دخلـت البيـت، واسـتلقيت عـلى سريـري، وأطفـأت المصبـاح وفكـرت، فكـرت في أن أقتـل كل مـن حرّمـوا عليّ السـوق، ولم أفكـر في شيء كهـذا في حيـاتي فارتديـت ملابـسي وخرجـت إلى الشـارع مجـددًا ودخلـت المقهـى، وجلسـت أمامـه، امتقـع وجهـه عندمـا رآني، وارتعشـت شـفتاه ورأيـت في مـرآة القهـوة رجـلاً شـاحًبا شـديد البيـاض، ارتعبـت كنـت أنـا هـذا الرجـل، انـصرف وذهـب مـن المقهـى.

قلت: إسكانافي، أحضر لي القهوة، وحكاية فجوة السقف.

لم يكن لدى إسكانافي نقود فكان غاضبًا.

فقال: أنتَ على البر، لكنني في الأعماق.

***

يمكننـي أن أنهـي القصـة هكـذا، فتكـون هـذه أحـد نهايـاتي، حـدث مـا حـدث لكـن لا، لم أنـزل السـوق، ولم أدخـل المقهـى شـديد البيـاض، ولم أمـر أمـام مـن لم أرد رؤيتـه، ولم أتحـدث مـع صاحـب المقهـى فأنـا في منـزلي في غرفتـي، لا أسـتطيع النـزول إلى السـوق وحـرارتي تسـعة وثلاثـون، أشـعر بالـبرد، وأرتعـش، ومـن جانـب آخـر أحـترق. تضـع أمـي الخـل وتقـول لي لا تقـرأ ونـم، وأطفـأت النـور وذهبـت، أنصـت إلى الأجـواء، كلـب قاشـيق أداسي

مـازال يعـوي، والريـاح تصطـدم بالزجـاج وتهـز الأبـواب فأنـرت الأضـواء.

هـذا أيضًـا شـكل مـن أشـكال النهايـات، لكـن ليسـت هـذه أيضًـا، ليسـت هـذه النهايـة أيضًـا، لا أسـتطيع أن أنـزل السـوق، هـذه هـي النهايـة.

***

دولابدير

أما توجد أسماء لأحياء إسطنبول؟ أعشق تلك الأسماء، فكم هي جميلة، وإن كانت بالكذب أو الخطأ، فأسماء هذه الأحياء تبعث أمورًا في مخيلة المرء، فتختلط هذه الذكريات المنبعثة من جوانب أخرى، فيدور فيلم داخل ظلمة عقولنا.

نرى دون أن نغمض أعيننا الساقية تسقى البساتين في دولابدير، وكذلك ينابيع البساتين المصفوفة، والدلاء الضخمة، والحصان القديم المربوطة عينيه بمنديل، وصريرًا، والماء المتقطر باستمرار من ثقوب الدلاء، وعضلات حصان الساقية، وألعاب الضوء والشمس في المياه المرسلة خلف المصبات الخشبية، وتوقف الحصان وتسارعه، وقول البستاني هوووو، والعقب الوردي لفتاة ألبانية حافية القدم، وبذور الخيار على خيط التمر الأحمر، ودخان السجائر، والبستاني الخمسيني المدخن، والكلبة الجامحة عديمة الحياء التي تداعب ذيلها في الهواء بعدوانية وفراء ظهرها المنتصب، وفمها وأنفها السوداوين والمبتلين تمامًا، ولسانها الوردي باللون الوردي القديم.

يمكنكَ أن تنزل في أي شارع من شوارع حي باي أوغلو حتى الجراج، أخترت أنا أكثرها شاعرية، نزلت من ألما داغ فألما داغ منحدر عمودي، تصطف المنازل على جانبيه، وتنزل المنحدر فلا تصادف التفاح أو الجبل، فتدخل على الأسفلت الذي خرب قبل بضعة سنوات، افتقر الحي فجأة، فترى الأكواخ من الخشب والأحجار، والصاج، والورق المقوى، وترى أطفال عراة تمامًا، ومقاهي دون مرايا، وفرش أو مقاعد، وأناس تفهم سريعًا من يكونون من لكنتهم. قال أحدهم:

- **أيا، ألا تذهب ابنتك للمصنع يا رجل؟**

- **يا سيد رستم أُطُردت ابنتكَ مجددًا من عملها وتبيع ملقط الشواء.**

الحي يشبه العيد، فتُسمع أصوات الطبل، والبوق، والكمان، ويتجول كبار السن بشواربهم السوداء وبناطيلهم، فترى فتيات ترتعب منهم لكن لا يوجد حل للرائحة النفاذة التي لم تعتدها أنفكَ، فهناك آثار نعال في الوحل من الشتاء الماضي -أي شتاء ماضٍ- من شتاء آخر للأمطار التي أمطرت في اليوم الذي تلى وصولكَ حي الفاتح بإسطنبول وتوجد رائحة نشادر أسفل الجدار تؤلم العين، وفي الأمام صوت مصنع يُحدث جلبة، فيذهب أغلب شباب الحي إلى مصنع طباعة الألوان هذا، هذه

البيوت المهجورة حولت ما حول المصنع إلى شوارع دون سلالم، تبعث برائحة جلد الماعز، والنشادر، ومخلفات المصنع، ها هي دولابديرـ، وإن عدتَ للأسفلت مرة أخرى تسير نحو يني شهير، على يمينكَ كنيسة فانجليسترا التي تشبه قلعة مستبد، فإذا حلّ المساء وكان هذا اليوم مقدسًا تجد كنيسة، فانجليسترا مضاءة بالشموع والنجف في الظلام، كأن الأميرات يرتدين رداء عاري، والكونتيسات، والدوقات اللاتي يضعن المساحيق البيضاء والشعر المستعار يرقصن (البولكا) [1] مع الأمراء.

ترعرعت الفتيات المسيحيات في هذا الحي التي تعمل دون مقابل في مئات بل الآلاف من دكاكين حي باي أوغلو والخيّاط، والحلاق، والمقهى الليلي، وخزانة الملابس، وبائع الحلوى، والحانة، وخيّاط النساء، وبائع الفراء، والسينما، وتربى البنائون، والدهانون، وصبية صائغي المجوهرات، والخراطون، وصانعو الأزرة، والنجارون، والمهرة في صناعة المفاتيح، والعمال، والصبية في هذا الحي أيضًا، ويمكن مصادفة في هذا الحي كل شيء ونقيضة النشالين التائبين، ومدمني الهروين الذين خرجوا حديثًا من المستشفى، وقارئي البخت، والوضيعات ما بين عامي ١٩٠٠ إلى ١٩٥٣، الأوباش القدامى، والأوباش

(١) -البولكا: رقصة خاصة بالشعب البولندي

الجـدد الأنيقـين الوسـيمين مخالفـي العـادات والتقاليـد يضعـون في جيوبهـم سـكاكين، واللصـوص، والمبتزِّيـن، الشـباب الذيـن يكسـبون أقواتهـم مـن العجائـز الغنيـات، ومـن يبحثـون عـن زبـون، الأمهـات القـوادات عـلى بناتهـن، ومـن يبحثـون عـن زبائـن لزوجاتهـم تصـادف رائحـة اللحـم، والجـوع، الراقـي، والحـب، والشـهوة، الخـير والـشر.

بمجـرد أن يحـل المسـاء تسـمع الصافـرات التـي تعـرف بعضهـا في كل شـارع، وهمهمـة الحـب اليونـاني في الزوايـا المظلمـة.

وإن أمطـرت يصيـب السـيل الحـي هنـا أولًا، وفي حـين تغـرق الأحيـاء الأخـرى في نسـمات كالحلـم في ليـالي الصيـف، لا تتحـرك أوراق الشـجر هنـا، ومقاهـي ينـي شـهيرة وحاناتهـا كبـيرة وجميلـة، والسـوق مضـاء وتنبعـث منـه رائحـة الكوكوريتـش[1]، ومقـلاة بلـح البحـر، والمحـار، والفجـل الأحمـر، والبقدونـس، ومقـلاة الكبـدة، والخمـر، والسـمك المشـوي، والراقـي، تـرى شـبابًا غريبـين وكبـار يبلغـون الخمسـين مـن الحـي شـعرهم يتـدلى عـلى جباههـم ويرتـدون بناطيـل ونعـال متوسـطة الارتفـاع وأحزمـة حمـراء مخصصـين للسـجن فقـط.

***

(١) -الكوكوريتش: طعام تركي.

مرض

ولأنه سيُصادف قريبًا المزيد من أمثاله، فهذا يعني أن ليس للمضادات الحيوية تأثير على هذا الفيروس بعد وفي هذه الحالة يصيب ذلك المرض المرعب واحدًا من ألف من بين البشر دون علاج ولا تنظر لكوني وصفته بالمرعب! فهو كذلك فقط للمستسلمين، بينما يكون ممتعًا على رعبه، بقدر لا يمكن تصوره للصامدين، نعم ممتع جدًا، ممتع لدرجة أنكَ إن فكرت ولو لدقيقة أنكَ مصاب بهذا المرض سيمكنكَ حينها ركوب القطار الكهربائي، والحافلة، والقطار مجانًا، فتلقي خطابًا وراء خطاب، وتتناقش حول أجندة الأعمال، وتدخل المجالس وتخرج منها، وتتبادل الترحاب بالوزراء، ترسل الدعوات وتتلقاها، الخلاصة أنكَ تضع نفسكَ مكان نائب في البرلمان لدقيقة، فترتاح، اكتُشف الآن اسم هذا المرض: مرض النائب.

وهو مرض نفسي: العلاج النهائي لكل الأمراض النفسية في يومنا هذا هو (الشكولاتة)، لكن بعدما لم يتم الانتخاب بعد عشرين محاولة دون جدوى أصبح هناك من يقاومون

(الشكولاتة)، تذكري برحابة مرض النائب لدي الذي مر عليه أكثر من ثلاثون أو أربعون عامًا يدلل أني وضعي ليس كالمرضى المصابين حديثًا بالمرض نفسه، فيمكن لكل مواطن الآن أن يكون عضوًا في البرلمان، ويصدر إعلانًا انتخابيًا، و يقوم بعمل دعاية، ولن يظهر أنه مصاب بمرض النائب، ولاسيما أنه تعلم، وقدم أفكارًا بنّاءة هنا وهناك، وأظهر حدة الذهن انتُخب، أو لم يُنتخب، فلن يُعد مريض بهذا المرض وإن جاهد لكي لا يظهر وضعه في الأربع سنوات، فالكارثة أن هذا المرض في البداية لن يُطلق عليه مرض، لكن بعد تخطي الأزمة الراحة لازمة. سأحكي لكم قصة قروي مسكين تتجدد أزمته كل يوم ويجددها.

بعض قروبي المدينة التي ولدت فيها قريبون من البلدة، فبعدما أُزيلت الحقول دخلوا على الفور إلى القرية الكبيرة أي بلدتنا، فقاطنوا القرى المجاورة يحسبون أن التحدث مع أهل البلدة شرفا كبيرًا، فمثلاً إن تعرفوا على كاتب البلدة، أو موظف الإسكان، أو رئيس البلدية، أو مدير التلغراف سيكون كل شيء على ما يرام، خلعوا عباءة القرية، فلا يمكثون في القرية أبدًا، وإن كان لديهم وقت وأحوالهم على ما يرام يذهبون إلى مقهى البلدة، وفي بعض الأمسيات يذهبون إلى النزل الذي يتواجد فيه الموظفون في وقت الكراهة، فإذا شربوا كأسين من الخمر مع

معلمي اللغة الفرنسية في الإعدادية عندما يعودون إلى القرية يظنون أنفسهم قادرين على التحدث عن باريس.

وكان المعلم رحمت واحدًا من هؤلاء القرويين، مثقفًا، يلقي الشعر، ويعزف الساز، يصلي، ويقرأ ورده من القرآن، فقد كان شابًا زكيًا، محبوبًا، ونشيطًا قبل سبعة وثلاثين عامًا، ولا أحد يحبذ بقاء الشاب القروي بعد موسم الحصاد في قرية قريبة من البلدة بهذا القدر دون عمل، حتى أبوه فيذهب عند شروق الشمس إلى مقاهي البلدة وأسواقها، ويتناول الكباب ظهرًا، ويصلي الظهر في مسجد (أورتا جامع)، يذهب عصرًا إلى مكتب المعلم حسن من الأعيان ليتحدث معه، فيتحمس، فيصبح شابًا قرويًا كالنار بوجهه الأحمر بطبيعته، وعينيه البنية المستديرة التي تلف باستمرار، يتحدث على طبيعته، ولكن صدقًا.

لم أصادفه في بداية مرضه كنت صغيرًا، اندلعت الحرب العالمية الأولى بينما كنت صغيرًا، كنا في أثناء الحرب فكأنني رأيته في مقهى البلدية بين مجتمع الموظفين، يرتدي بنطالًا ضيقًا، وسترة الإسطنبولين، ولا أعرف إن كان يرتدي قميصًا رسميًا، وربطة عنق سوداء، وعيناه البنيَّتان محمرتان واقفًا على قدميه، فماذا كان يقول؟ لا أتذكر جيدًا، كنا طلابًا بالمدرسة نرتص على سياج حديقة فندق البلدية، فناداه مدير إدارة الدين العام من أمام الحوض:

- تفضل سيد رحمت، تفضل هنا.

قام من مكانه، وجلس على كرسي باحترام.

- أيها النادل! أحضر القهوة للسيد النائب ولتكن في فنجان كبير.

قال الكاتب:

- أيمكن هذا يا سيد؟ أيمكننا أن ندفع لمرشح أن يكون نائبًا؟ هو من سيدفع لنا.

رد رحمت:

- سأعوضكما بعدما أصبح نائبًا لدي بقرة وثوران بخلاف حقل ثمانية أفدنة محجوزًا عليهم في الوقت الحالي بسبب الضرائب، لذلك لا يمكنني أن أشتري لكما القهوة.

كذب، فالسيد رحمت بخيلاً، هو أحد أغنياء القرية نادى مدير الإسكان على رئيس البلدية قال له:

- أيها المعلم رحمت إن طلبنا منكَ خطابًا مختصرًا مفيدًا، أتتفضل علينا؟

انزعج المعلم رحمت كثيرًا من مدير الإسكان فقال:

- اعتقد انه لن يكون لازمًا كوني معلماً لكي أذهب هموم ومتاعب قروي دائرتي بعدما أكون نائبًا، فتخرجي من المدرسة الرشدية كافٍ.

وكان قد أنهي المعلم رحمت المدرسة الرشدية المعروفة باسم (مدرسة سبورجي) حاصلاً على المركز الأول.

قال رئيس البلدية:

- أرأيتَ، فقد أغضبت المعلم رحمت مجددًا، أيمكن هذا؟ لا تحزن نفسكَ يا سيد رحمت! سأدعمكَ هذه المرة بكل ما أوتيت من قوة، فلن تمنع مساعدتكَ عنا في المجلس حينها.

قال رحمت:

- الأمر قبل الأدب، وكان يقبل يد رئيس البلدية.

قال رئيس البلدية:

- استغفر الله، معاذ الله، قام ثم جلس مرة أخرى فألقي علينا خطابًا صغيرًا الآن، انظر أنا العبد الفقير أرجوكَ لذلك.

- على العين والرأس يا سيدي.

صعد المعلم رحمت فوق الكرسي وقال:

- مواطني الأعزاء! لا يلزم القيام بأعمال كبرى لتحويل كل قرية في وطننا الجميل إلى جنة، ستنحل المشاكل من تلقاء نفسها إن تفضلتم بانتخاب بعض القرويين نوابًا، لكن وضع قرانًا معروفًا، فوضعها سيء، وجميعنا يعلم هذا، فمن غير

القروي يسعه معرفة هم القروي؟ وسأحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أحلها إن انتخبتموني نائبًا، فسأقوم أولًا بإلغاء الضرائب.

فانبعثت أصوات تقول: فليحيا، ويعيش.

انحنى السيد رحمت برأسه احترامًا واستكمل:

- **سأقضي على قطع الغابات وتخريبها دون طائل.**

- **رائع، فلتحيا!**

- **سأزين المرتفعات الجرداء بالأشجار.**

- **فليحيا نائبنًا!**

- **فإن اكتظت سكاريًا، فسأقوم ببناء سدود؛ لكيلا يتم التعدي على حقولنا.**

- **سلمت.**

- **سأوزع الأراضي الفارغة على الفلاحين، وسأبني الصوامع.**

ينحني وإن لم يكن هناك تصفيق:

- **سآمر بزراعة التوت، وسأقضي على الحشرات، وسأبني المتاحف، والتنقيب.**

- فليحيا المعلم رحمت!

عندما رأى رئيس البلدية أنه سيستمر في هذا، وأن طلاب المدرسة، وبجوارهم صبية البقالين، والحلاقين، والقصابين اصطفوا بجوار بعضهم يصفقون، أحضر الشرطة لتفرقنا.

وما رأيناه من بعيد رجلًا فوق الكرسي ينثر الوعود، أحمر الوجه وما سمعناه: بعض الجمل يهتف بها أصحاب الحقول بالسرعة نفسها جاءت تباعًا مثل (الحرية، المساواة، العدالة، سدود، حقول جرداء، ضرائب، ثيران، عصا، حساء الترخانة، الجنة، المحبة).

ذهب المعلم رحمت مع الموظفين إلى مطعم صغير بالمدينة، أكلوا وشربوا باستضافة رحمت، فألقى خطابًا في المطعم، حتى منتصف الليل، ركب رحمت حصانه، واتخذ طريقه إلى القرية ثملًا وعندما عاد ممتقع اللون صباح اليوم التالي للخطاب إلى مقهى المدينة لم يرغب في إجباره على إلقاء خطاب مجددًا.

عندما سلم عليه أحدهم قائلًا: "يا إلهي أيها النائب!" غضب من الحرج، ثم أصبح طبيعيًا، فتملكه خوف.

- تحدثنا مساء أمس بكلام لا يليق، ترى أتحدثت بصراحة فظة؟ عظمة اللسان غير موجودة يا أخي. فقلنا على سبيل المزاح من نحن ومن النائب؟

فتحدث موظف حديث العهد من أمام الطاولة:

- أي مزحة هذه يا أخي؟ لقد كتب رئيس البلدية صباحًا اسمكَ في المنصب الجديد أمام عيناي، إن لم تكون نائبًا هذه الدورة سيستقيل، فرئيس بلديتنا العزيز يقول: آه! عيب عليّ، هذه وقاحة، لن أحمل في رقبتي ذنب عدم تنصيب رجل في ذلك المظهر والتفكير نائبًا منذ عدة دورات، ولم يقول شيئًا آخرًا.

- أحقًا هذا يا سيد عبد الله بالله عليك؟

- لتنهال النعم!

خطاب صغير مختصر! هيا في المطعم! هيا في هذه الاستضافة!

بعدما أنفق المعلم رحمت الصفيحة الذهبية التي ورثها عن أبيه لم يذهب للمدينة، وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وظهر بعدها وفي ظهره رصاص حرب الاستقلال، أصبح ظهوره واختفاؤه واحدًا، بعد إعلان الجمهورية ظهر في المدينة في الدورة الثالثة، وقد حلق لحيته وشاربه، ويرتدي بنطالًا رسميًا وجده حيثما وجده، وسترة، ويحمل قبعة في يده، لم يرتديها قط؛ لأن رأسه المحلوقة بالموس كبيرة، اعتاد أن يضع وردة على ياقة معطفه الذي تدلى تنورته حتى كعبه.

ذات يوم تمكن من دفع بضع قروش ثمن ضيافة في المطعم مجبرًا عندما بشرهم أحد رقباء البلدية بأن رئيس البلدية اختاره نائبًا فاصطحبوه إلى قطار أنقرة كمزحة، أمسكوه وهو يركب القطار، قالوا: تم تجهيز قطار خاص، سيأتي الآن، ستذهب به، ثم انسلوا، انتظر المعلم رحمت أربع وعشرين ساعة في المحطة، وفي النهاية ركب في القطار القادم، نُصبت مقصورة النائب، أعلم أنه ذهب في طريق طويل، وغير معلوم إلى ما وصل الأمر في المحطة وفي أي محطة نزل.

ويقولون أنه يتجول منذ وقت طويل من هذه المحطة إلى تلك ومن تلك إلى أخرى ناصبًا مقصورات للنائب، ولم يستطع الوصول إلى أنقرة بحال، وفي النهاية رأيناه عاد للمدينة وقد تمزقت تنورة معطفه الطويلة، وتقطعت ربطة عنقه، وتحول قميصه من الأبيض إلى الأسود القاتم، وفي قدمه حذاء لماع والأخرى حذاء يمني، أحضروه إلى القرية، لكنه في أقرب فرصة يذهب إلى المدينة، ويركض إلى المحطة، وينتظر قطار أنقرة، وحتى لو لم يكن هناك أحد في مقصورة النائب، يُسمح له بالجلوس في المقصورة بضع دقائق إن كان ناظر المحطة في مزاج جيد، ثم يتم إنزاله في المحطة بمنتهى الاحترام والتكريم كما أنه وصل أنقرة، وتصطحبه الشرطة إلى القرية.

***

سبات أفعى

هـا أنـت وجهًـا لوجـهٍ، هـا هـي مثلـكَ تمامًـا، لديهـا يـدان وقدمـان، عينـان وحاجبـان، تصـح وتمـرض، شـقراء وسـمراء، لديهـا رأس، ورمـوش، ولسـان يكـذب، وفي وجههـا آثـار عـراك بسـيط، وحجـر، وسـقوط، بهـا كل مـا بطفـل مشـاغب كل علاماته، هـا هـي يداهـا، وأصابعهـا، وقدماهـا، مـن هـي؟ إنسـان! فهـي مثلـكَ تمامًـا.

هـا هـي الدمـوع في عينيهـا تـارة، وتـارة أخـرى تبتسـم، تقضـم الخبـز، انظـر فقـد وضعـت في فمهـا سـلطة البطاطـس، وتضـع في شـوكتها سـمك الماكريـل، وعـلى فمهـا كأس الخمـر، الإنسـان مثلـكَ تمامـا مختلـف، وفـوق ذلـك تحبها، وتحـب التـواءات شـفتيها، وسـواد شـعرها، وتقطـب حاجبيهـا، وتجاعيـد الشـباب في جبهتهـا.

هـا هـي مختلفـة تمامـا مثلـكَ، أتـت لتلـدغ، تقـرأ الجريـدة، ها هي علبـة السـجائر وتوقـع الأوراق، وتـأكل البرتقـال، وتغنـي التركـو، تغنـي باللغـة التركيـة التـي تعرفهـا أنـتَ وتجـري في عروقهـا أغنيـة (فلفـلي الأسـود فلفـلي فلفـلي)، وبعدهـا تغنـي (تركت الركـض وراء

الغنى وإبراهيم الآن)، ها أنت وجها لوجه، هيا أعرفها لنرى، وأفهم، عرّف نفسكَ لنرى، ها هي تمل، وتتنفس بعمق، وتمد أصابعها التي تحبها أنتَ نحو علبة السجائر، ويخرج الدخان من بين التواءات شفتيها التي تحبها أيضًا، هيا لنرى، اعرفها لنرى من هي؟ وكيف تفكر فيكَ؟ وأين ترغب أن تكون في هذا الوقت؟ أتعبأ بحبكَ؟

هيا اعرفها لنرى " فلفلي الأسود، فلفلي الأسود، فلفلي الأسود، كيف نفعلها، كيف، الشرطة قادمة، لنهرب".

ها أنتَ وجها لوجه، هيا لنرى، قل ما ستقول، وتحدث بما تتحدث، هي تسمع أيضًا، تنصت، تحدث عن الحب، فماذا سيحدث، ستحدث أمورًا إن فهمتها أنتَ وليس إن فهمتكَ.

ها أنتَ وجهًا لوجه، تنهض فجأة فيمكنكَ أن تقبلها من شفتيها، فتغمض عينيها، تغمضها بجمال، ربما لكيلا تراكَ، لا أنتَ تفهمها ولا هي تفهمكَ، ربما لا يكون الفهم من صالح أي منكما، "اعرف، اعرف، اعرف نفسكَ"، ابدأ بذلك، بعدها ستفهمها.

فجأة انفتح باب الغرفة التي كنا فيها، وهبّت رياح، ودخلت شجرة تساقطت أوراقها من البرد، ومن خلف الشجرة دخان ومن خلف الدخان عصفور، ومن خلف العصفور سحابة.

بعدها، بعدها تساقط الثلج، وبدأ الثلج يتساقط على زجاج المكتبة، نفذ ضوء المصباح خلال الثلج، وبرد الضوء فدخل في زجاج المصباح الموجود في السقف، تجمدت جيوب ملابسي، فلا يمكنني أن أضع يدي في جيبي، تحترق المدفأة متأججة، فينصهر الجليد فوقها، من كانت بجواري، منذ قليل ذهبت إلى الغرفة المجاورة، وفتحت الباب الذي يفصل الغرفتين، ونظرت إليّ، حط العصفور على الشجرة، وجلس ونفش ريشه، فحت الأفعى للطائر، فلم يجيبها، نظرت إلي وقالت:

- **تجمدتَ هنا، تعالَ إلى هذه الغرفة!**

أكملت وقالت:

- **دافئة يا رجل.**

كأنني اسألها (هل هذه الغرفة دافئة؟).

وقالت:

- **مني.**

كأنني سألتها (هذه الغرفة ساخنة، مني؟).

نظرت إلى المدفأة تحترق متأججة، ما إن مسحت بيدي على أنبوب المدفأة سحبتها لأنني شعرت إنه سيحدث عطل بها.

قالت: "لا يوجد شيء بالمدفأة!"، كأنها تراني من الغرفة التي بها .

ذهبت إليها، السرير جاهز، وكانت قد انكمشت في الزاوية، فانسللت جوارها، كانت دافئة كالحمام، قلت:

- **تجمدت بمفردي في الغرفة التي بها مدفأة.**

أجابتني:

- **الوضع جيد هنا! ماذا عن العصفور؟**
- **فوق الشجرة.**
- **سيتجمد المسكين، احضره هنا هو أيضًا.**
- **دعِ العصفور الآن.**

تولدت داخلي ثمة أمور، فاستغربت كل شيء حولي فجأة، جوارها كان دافئًا، والمدفأة تتأجج داخل الغرفة الأخرى، لكن الثلج موجود على زجاج المكتبة، وهناك شجرة هناك تجمع الثلج على أغصانها الجافة، فتجمد العصفور فوق أغصانها، سيخرج صباحًا أو لن يخرج، قالت مجددًا: "احضر العصفور هنا، احضره هنا!".

نهضتُ رغما عني، ودخلت غرفة المدفأة، أخذت العصفور من فوق الشجرة، وأزلت الثلج المتراكم على زجاج المكتبة بظفري، فنظرت إلى المدفأة التي أوشكت أن تنطفأ، فوضعت عودين من الخشب، عدت فوجدت السرير خاويًا، تركت هي ورقة فوق الخزانة ذات الأدراج بجوار السرير، أخذتها وكانت قد طويتها نصفين فتحتها؛ إذ بها فارغة تركتُ العصفور فوق الخزانة، بدأ يزقزق ومازالت الغرفة دافئة، تدور حول رأسي التواءات شفتيها، والجرح المتبقي من الطفولة المشاغبة كالطائرات الورقية التي كان يصنعها الأطفال في ساعات مذاكرتهم، فجلست فوق سريري، وأشعلت سيجارة، وكانت الشجرة في الغرفة الأخرى تدق على الزجاج المغطى بالجليد، وكنت أسمع صوت المدفأة، قُرع باب الغرفة التي كنت فيها، فقلت: "ادخل!".

دخل رجل يرتدي معطفًا واقيًا من المطر اخضر اللون، فقلت له تفضل، من تريد، حدق الرجل في وجهي، والتفت حوله، وقال أين هي؟ سألته من؟ قال من كانت معك منذ قليل، لا اعرف قامت وذهبت، أزال اللحاف ونظر إلى وجهي، وسألني لماذا تكذب؟ عدت، فنظرت مرة أخرى وجدتها نائمة حيث انكمشت، تغط في نوم عميق، والعرق على جبينها، طار العصفور من فوق الخزانة وحط على شعرها، وغرد كبلبل في غابة نائية.

ذهبت مع الرجل إلى الغرفة الأخرى، فإذا بالثلج يهطل على الغرفة، فتجمع على سترته الخضراء وبيجامتي، لكن شعرت بالبرد، وهو ينفخ في يده ويحكهما، قال: دعها تنام ولنتحدث معًا، لا يوجد ما نتحدث عنه وهنا أيضًا الجو بارد، لا بد أن أذهب وأنام أنا أيضًا سأستيقظ مبكرًا غدًا، تقطّب وجهه، وارتعشت يداه فقلت له لا تحزن، إن أردت نتحدث، ولكن أضع شيئًا عليّ، خرجت، وارتديت معطفي وجئت، تغيرت الغرفة فجأة، فأخذت طور غرفتي المعتاد دائماً، جلس الرجل على الأريكة بارتياح، وشرب سيجارة، وعندما رآني قال لي: اتفقنا، اتفقنا، فسألته مع من اتفقت، ابتسم وقال لي: العصفور أخبرني ، انشرح صدري، إن أخبره العصفور فسيخبره أمورًا جيدة، أتخبر العصافير بسوءٍ؟

- **أتتحدث العصافير؟**

قال لي بالطبع تتحدث، أمي كانت تقول لي وأنا صغير أخرجت لسانكَ للمعلم في المدرسة وهذا عيب أليس كذلك؟ فكنت أجيبها والله كذب يا أمي، من قال لكِ هذا، كانت تقول لي العصفور قال لي، فهو أيضًا العصفور نفسه، سألته أقال كل شيء، نعم.

ارتحت، أتقول العصافير سوءًا؟ فلا بأس من شائعات صغيرة.

قلت: إذًا لا يوجد مشكلة!

قال لا، لا.

سأشرب سيجارتي وأرحل، بدأ الثلج يجتمع فوق المكتبة مجددًا، فتح الباب، فدخلت الشجرة، انتظرت العصفور يدخل خلف الشجرة، لم يدخل، ودخلت سحابة، تغيرت الغرفة مجددًا، وبردت مرة أخرى، تساقط الثلج هذه المرة من أطراف الكتب، قلت لنفسي لا يوجد شيء، يبدو أن الرجل تغير انكمش على الأريكة، ينفخ في يده ويهز رأسه، واحمرت أنفه من البرد، لكن كان ينظر إلي ويبتسم لا لم يتغير، كما كان منذ قليل. وقال: آه استأذنك الآن، طاب مساؤك.

قلت: طاب مساؤك.

قلت: طاب مسائكم.

لم أرغب في الذهاب إلى الغرفة الموجودة بها، على كل ستكون نهضت وذهبت منذ وقت طويل، والعصافير ستكون خرجت وحلقت معًا، لكن مازالت الغرفة دافئة، خلعت الشجرة وألقيت بها من باب الشرفة، وذهب الدخان والسحابة من تلقاء نفسهما، بردت غرفتي قليلًا، كانت المدفأة تتأجج، فأخفضت مفتاحها قليلًا، ذهبت إلى الغرفة التي كانت بها،

وأزلت اللحاف، فكانت تغط في نوم عميق في الزاوية التي انكمشت فيها، فاحتضنتها، فظل العصفور ينتقل من رأسها فيحط على رأسي ومن رأسي إلى رأسها، فسمعت صوت جناح العصفور، ونومها العميق حتى الصباح.

***

الفهرس

التعريف بالؤلف	١١
يا لها من قصة!	١١
الإنسان الذي خلفته الوحدة	٢٥
أفعى في ألما داغ	٣٩
حلم بانكو	٤٥
تمثال مليحة	٥١
الحرفي يني	٥٧
قصة لشخصين	٦٣
رضا مليونير	٧٧
بيت اللبلاب	٨٩
مقهى افتاليكوس	٩٩
أيا، أيا!	١٠٧
موت سمكة الجندوري	١١٣
الرأس والزجاجة	١١٩
لن أنزل السوق	١٢٥
دولابدير	١٣٧
مرض	١٤١
سبات أفعى	١٥١